
هيئة كتابة التأريخ
مشاهير
العرب المسلمين
الخليفة
المتوكل على الله العباسي
د. عماد اسماعيل النعيمي



وزارة الثقافة والاعلام



بغداد ١٩٩٠





طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

هيئة كتابة التأريخ

سلسلة «مشاهير العرب»

الخليفة
المتوكل على الله العباسي

د . عماد اسماعيل النعيمي

الطبعة الاولى لسنة ١٩٩٠

المقدمــة

الخليفة أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصـور العباسي ، لقب بـالمتوكـل علىٰ الله ، ولـد في شـوال سنـة ٢٠٦ هـ / شبـاط / ٨٢٢ م ، وتولىٰ الخـلافـة يـوم ٢٣ ذي الحجـة سنة ٢٣٢ هـ / ١٠ آب سنة ٨٤٧ م ، وحكم مـايقرب خمسـة عشر عاماً .

كان المتوكـل اسمر اللون ، مليـح العينين ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين[١] ، ربعة[٢] لم تذكر مصادرنا الشيء الكثير عن حياته عندما كان أميراً ، سوىٰ أنه حجّ قبل الخلافة في موسم عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م ، وكـانت معه أم أخيـه الخليفـة الـواثق ، حيث تـوفيت في الـطريق[٣] ، ثم تظهـره تلك المصادر ، وكـأنه عـاش عيشة الأمـراء المترفين ، حتىٰ أنه حصلت له بعض المشكلات مع أخيه الواثق ، فلم يرض عن بعض تصرفاته ، وبالذات تبـذيره الأمـوال . ونلاحظ في رسالة الوزير الزيات الموجهة الىٰ الخليفة الواثق متحدثاً فيها عن الأمير جعفر (المتوكل) ، مايشعرنا بمدىٰ الترف الذي كان عليه ، يقول : أن الأمير جعفر جاءه « في زي المخنثين ، له شعر قفا »[٤] . وربما كان تطلع الأمير جعفر الىٰ أن يكون خليفة ، في الوقت الذي لم يعين فيه الواثق ولياً للعهد ، سبباً آخر لسوء معاملة أخيه له ، يروي الـطبري عن أحـد أصحاب الأمير جعفر ، أن الأمير حدثهم بأنه « رأىٰ في المنام أن سكراً سليمانياً يسقط عليه من السماء مكتوباً عليه جعفر المتوكل علىٰ الله » ، فقيل له : هذا دليل علىٰ أن الخلافة ستكون من نصيبه ، « وبلغ الواثق ذلك فحبسه . . وضيق علىٰ جعفر بسبب ذلك »[٥] .

وقد أعرضنا عن ذكر روايات أوردتها المصادر المتأخرة ، لكونها

تبتعد عن العهد الذي نؤرخه ، وتعكس ظروفاً سياسية واجتماعية عاشها من رواها من المؤرخين المتأخرين ، مثل موقف الخليفة المتوكل من العلويين ، أو موقفه من أهل الذمة ، حيث لم يثبت تاريخياً وعملياً تطبيق الأوامر التي أصدرها بحقهم .

لقد لاقت بعض اجراءات المتوكل الاستنكار من بعض الباحثين الغربيين والشرقيين « والذين كانت تنقصهم في بعض الأحيان ، الدراية وكانوا منقادين بيسر وراء أهوائهم وميولهم الفردية »[٦] ، فقد لقبه المستشرق ل . أ . سيديو بـ « نيرون العرب » ، واقتبس الوصف نفسه السيد أمير علي وعبدالجواد الكليدار ، أما المستشرق « ميور » فقد وصف المتوكل بانه ذو عقلية محدودة ومتعصب لآرائه ، ويكرر الوصف نفسه كل من ساندر ، وزاوسبورن ، وررويان ليفي .

وهناك آراء مجموعة أخرىٰ من الباحثين الغربيين انصفت بعض الشيء الخليفة المتوكل كالمستشرق البريطاني برنارد لويس والألماني فون جرونوبوم .

لقد ورث المتوكل أزمات عديدة ، الا أنها معقدة ، من هذه الأزمات محاولة الخلفاء الثلاثة قبله فرض مذهب معين علىٰ الناس ، واتباعهم سياسة الكبت والعنف التي اصطلح علىٰ تسميتها بـ « محنة خلق القرآن » وماجرته من استياء عام لدىٰ العامة من الناس ، ثم ازدياد نفوذ العناصر الأجنبية المرتزقة (التي كانت جلها من الأتراك) علىٰ حساب العرب ، فضلاً عن ذلك كله ، كان عليه أن يواجه تدهور الادارة وتفشي الفساد والرشوة بين الوزراء وكبار الموظفين ، والتي كانت بسبب سيطرة القادة العسكريين الأتراك علىٰ الادارة .

كان علىٰ الخليفة المتوكل أن يواجه هذه الأزمات الحادة بشجاعة

وفطنة ، فحاول وضع الحلول الجذرية لها ، ولو أن تلك المواجهة أثارت له الكثير من الصعوبات التي هيأت الظروف لانهاء حياته ، لكنها في الوقت نفسه ، محاولة جريئة لانقاذ الخلافة من أزمتها .

تناولنا في الفصل الأول المنطلقات الفكرية للخليفة المتوكل لمعالجة الأزمة التي كان يعاني منها العلماء والقضاة والعامة من الناس(محنة خلق القرآن) ، أما الفصل الثاني فكان عن التوجهات العربية للخليفة المتوكل ، وهي توجهات الغرض منها الحد من نفوذ العسكريين المرتزقة الأجانب . وعالج الفصل الثالث محاولة الخليفة الحد من التدهور الاداري وتفشي الفساد والرشوة ، وألقينا الضوء على اصلاحاته الزراعية والاقتصادية . أما الاضطرابات الداخلية في أذربيجان وأرمينية وحمص ، والعلاقات الخارجية مع بلاد البجة والروم البيزنطيين فخصص لهما الفصلان الرابع والخامس .

في حين خصص الفصلان السادس والسابع للازدهار العمراني في سامراء ، والأزدهار الثقافي . وفي الفصل الأخير ألقينا الضوء على مؤامرة اغتيال الخليفة وأسماء المشتركين فيها ودوافعهم .

وأخيراً نرجو من الله تعالى التوفيق والسداد .

الهوامش

١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٩/ ٢٣٠ .
٢ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/ ٣٥١ .
٣ ـ الطبري : ٩/ ١٢٣ .
٤ ـ م . ن : ٩/ ١٥٧ .
٥ ـ م . ن : ٩/ ١٥٥ .
٦ ـ راجع الدكتور بهجب كامل عبداللطيف : الخليفة المتوكل بين خصومه وأنصاره ٩٣، ٩٦ ـ ٩٧ ، مجلة كلية الآداب / جامعة البصرة ، العدد ١٠ .



الفصل الأول

المنطلقات الفكرية



أكد الخلفاء العباسيون الأوائل في مناسبات عديدة تمسكهم بالدين الاسلامي ، واستنادهم الىٰ أحكامه ، بشكل عام ، في ادارة شؤون دولتهم[١] ، علىٰ إنا يجب أن نذكر أنهم لم نتبنوا مذهباً رسمياً معيناً ، وليس في رواياتنا التاريخية الأولية مايشير الى انهم مالوا الىٰ مذهب فقهي معين ، أو فرقة سياسية ـ دينية . ولعل السبب يعود الىٰ عدم تبلور تلك المذاهب في تلك المرحلة ، كما أن ذلك أضمن لاستقرار الدولة وسلامتها .

لقد أدرك خلفاء المرحلة الأولىٰ ، أهمية الفقهاء وأصحاب الحديث في مجتمع يتميز بـ « تأثير الدين الاسلامي واضحاً جلياً في مرافق الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة »[٢] ، لذلك استعانوا ببعض الفقهاء والعلماء للعمل قضاة للدولة[٣] ، وقد انفتح الخلفاء علىٰ رجال عديدين من الفرق المختلفة ؛ فقد اتخذ الخليفة المنصور مثلاً موقفاً مرناً تجاه الراوندية ، وهم اتباع العباسيين ، علىٰ الرغم من أنهم بثوا آراءهم المتطرفة البعيدة عن الدين الاسلامي ، ولم يأمر الخليفة بتصفيتهم الا بعد أن تجاوزوا الحدود وباتوا خطراً علىٰ المجتمع وأمن الدولة والخليفة نفسه[٤] . وكانت للخليفة المنصور علاقات ودية وحميمة بعمرو بن عبيد أحد رجال الاعتزال الأوائل[٥] . أما علاقة المنصور بالامام جعفر الصادق فكانت جيدة وودية ، وقد مدحه الخليفة في رسالته الىٰ محمد (النفس الزكية)[٦] ، وفي رواية ان الخليفة المنصور هو الذي ، سماه بـ « الصادق »[٧] ، ونجد هذه المرونة نفسها في عهد المهدي[٨] ، والرشيد[٩] ، علىٰ أن أهم قرار اتخذه الرشيد هو النهي عن الجدل الديني ، وأمره بحبس المتكلمين[١٠] استمر المفهوم نفسه في عهد المأمون تجاه الفرق والمذاهب المختلفة ، وازال الحظر الذي

فرضه والده ضد الجدل الديني ، يذكر الطبري قول الخليفة المأمون : « إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات »[11] ، وكانت له مجالس للمناظرة مع الفقهاء وسائر أهل المقالات[12] ، دون أن يلزم أحداً بمذهب معين ، أو أنه أيد فرقة معينة ، بحيث كانت تناقش مسائل الامامة وغيرها ، وتأييد المتناقشين لأفكار تخالف أفكار العباسيين دون أن ينزعج الخليفة منها[13] .

كان عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م نقطة التحول في موقف الخلافة العباسية الديني ، ذلك ان الخليفة المأمون اتخذ قراراً مهماً ، وهو الاعلان عن القول بخلق القرآن[14] ، ان القول بخلق القرآن كان قد طرحه المعتزلة أو « أهل العدل والتوحيد » قبل هذه المدة ، وقد تبنىٰ المأمون آراءهم في هذه المدة من حكمة لأسباب عقائدية بحتة ، لاعتقاده بوجود خطورة علىٰ عقيدة التوحيد الذي تتميز به الأمة العربية ، ويظهر ذلك جلياً في كتب الخليفة الىٰ بغداد[15] ، وقد صور ابن العماد الحنبلي مفهوم الخليفة لقراره أحسن تصوير حين قال : « إن المأمون قام في هذه البدعة قيام متعبد بها »[16] .

والواقع ان اعلان الخليفة المأمون القول بخلق القرآن لاقىٰ معارضة قوية من جانب الفقهاء وأصحاب الحديث ، ويطلق عليهم اليعقوبي اصطلاح (الجماعة) ، فقد أشار الىٰ تلك المعارضة بأنها كانت منذ وقت مبكر ، ففي حديثه عن حوادث عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م في اقليم ارمينية يقول : « وقد وقعت بين المعتزلة والجماعة العصبية ، فبعضها يقتل بعضاً حتىٰ كادوا يتفانون ، ثم اصطلحوا »[17] . هذا علىٰ الرغم من أن الخليفة المأمون لم يلزم أحداً

بمفهومه الجديد في تلك المدة ، وانما بدأ ذلك في نهاية حكمه ، أي في عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، بعد أن لاحظ وجود معارضة شديدة من جانب بعض الفقهاء وأصحاب الحديث ، فأرسل من الجبهة البيزنطية ـ العباسية كتبه الىٰ بغداد ، موضحاً ومدافعاً عن مفهومه الجديد ، طالباً امتحانهم والزامهم بقبول تلك المفاهيم ، علىٰ أن تتم معاقبة المعارض[١٨] ، وفي رواية تاريخية ، ان الدولة بدأت في تدريس تلك المفاهيم في معاهد التعليم ، خصوصاً تعليم الأطفال ، لينشأ جيل يؤمن بها[١٩] .

ان العقوبات التي كانت تنتظر المعارض لرأي الدولة ، هي الفصل اذا كان قاضياً ، واسقاط عدالة الشهود ، ومنع الفقهاء والمحدثين من الافتاء أو رواية حديث الرسول (ﷺ) في المساجد[٢٠] ، وقطع رواتب بعضهم ، ومع ذلك فإن الجاحظ ، وهو معتزلي ، يعترف بكثرة المعارضين لرأي الدولة[٢١] ، علىٰ انا يجب ان نشير الىٰ ان سياسة الكبت والعنف والاعتقال زمن الخليفة المأمون ، شملت بالدرجة الأولىٰ ، العلماء الذين لهم ماضٍ سياسي ضد الخلافة العباسية ، أو شجعوا وساندوا حركات معارضة للخلافة[٢٢] .

أما المعارضة الدينية الصرف فإنها تركزت في الامام أحمد بن حنبل الشيباني ، حيث اعتقل في نهاية حكم الخليفة المأمون ، وبعد مرور أربعة عشر شهراً قضاها في السجن ، وفي عهد الخليفة المعتصم ، حوكم ، محاكمة عامة علىٰ مدىٰ ثلاثة ايام ، وأصرّ علىٰ موقفه المبدئي ، وكانت النتيجة ضربه بالسياط ، واطلاق سراحه[٢٣] .

لقد استمر الخليفة الواثق في فرض آراء المعتزلة ، حتىٰ انه ذهب أبعد من عمه (المأمون) وأبيه (المعتصم) ، فامتحن عامة الناس في

خلق القرآن ، بعد ان كان الامتحان مقتصراً على القضاة والفقهاء والعلماء من رجال الحديث ، يقول اليعقوبي : « وامتحن الواثق الناس في خلق القرآن ، فكتب الى القضاة ان يفعلوا ذلك في سائر البلدان ، وان لايجيزوا الا شهادة من قال بالتوحيد ، فحبس بهذا السبب عالماً كثيراً »[24] ، وشمل هذا الامتحان سكان الثغور (الجبهة) أيضاً[25] .

ان سياسة الكبت والعنف ، ومحاولة فرض مذهب معين من جانب الدولة ، أديا الى ردود فعل عنيفة ، فقامت جماعة من عامة الشعب بالاتصال بالشيخ احمد بن نصر بن مالك الخزاعي في بغداد ـ وكان جده أحد نقباء العباسيين ـ وحرضوه على الوقوف بوجه الدولة ، بسبب موقفها المذهبي ، واتفقوا على يوم معين لاعلان تحركهم ، الا أنه تم القبض عليهم جميعاً[26] . وقد حوكم الشيخ أحمد بن نصر الخزاعي بحضرة الخليفة الواثق في سامراء ، وكلم الخليفة بكلام غليظ ، فشتمه الواثق ، فرد عليه الشتيمة وأراد منه الاقرار بأن القرآن مخلوق ، لكنه رفض ، ثم اتهمه الخليفة بالتشبيه ، فأمر الخليفة بقتله وصلبه[27] .

ان تحمس الخليفة الواثق لهذه المفاهيم الدينية ، انعكس بشكل واضح في تبادل الأسرى مع الروم البيزنطيين عام ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م ، يقول الطبري : « فمن قال منهم (الأسرى) ان القرآن مخلوق وان الله عزّ وجلّ لايرى في الآخرة ، فودي به ، ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم »[28] .

لقد هوجم المعتزلة في سياستهم في طبيعة القرآن ، وكيف أنهم آمنوا بحرية العقل والارادة ولكنهم حملوا الناس قسراً على قبول آرائهم ، وبذلك كانت آراءهم تختلف في النظرية عنها في التطبيق ، ان تلك السياسة كانت من أهم أسباب سقوطهم سياسياً وفكرياً[29] ،

ونضيف بأن تدخل الدولة لتكون طرفاً في النزاع وتبنيها مذهباً معيناً وفرضه على الناس بالاكراه أدى الى ردود فعل عنيفة وانشقاقات في المجتمع مدة ليست بالقصيرة .

لقد أدرك الخليفة المتوكل الخطأ الذي وقعت فيه الخلافة بإجبار الناس على قبول مبادىء وأفكار دينية معينة ، ولذلك فأهم قرار اتخذه بعد استخلافه ، هو منع الناس من الجدال الديني ، وبالذات حول طبيعة القرآن ، لكنه في الوقت نفسه ، لم يلزم أحداً بمذهب آخر ، أو أنه أجبرهم بالقوة على قبوله ، وانما اكتفى بابتعاد الدولة عن التدخل باعتقادات العامة من الناس ، وتركهم ومايعتقدون ، وأعطى الحرية للعلماء في إلقاء دروس الحديث في المساجد ، كما كانوا في السابق ، دون تدخل من الدولة ، وفي رواية اليعقوبي خير دليل على ماذهب اليه ، يذكر أن المتوكل « نهى الناس عن الكلام في القرآن وأطلق من كان في السجون من أهل البلدان ، ومن أخذ في خلافة الواثق ، فخلاّهم جميعاً ، وكساهم جميعاً ، وكتب الى الآفاق ينهى عن المناظرة والجدل ، وأمسك الناس »[٣٠] . ويؤكد الطبري ذلك بقوله : « نهى ـ المتوكل ـ عن الجدال في القرآن وغيره »[٣١] ، وفي رواية المقدسي توضيح آخر ، حيث يقول : أن المتوكل كتب الى أهل بغداد كتاباً قرىء على المنبر ، بترك الجدال في القرآن وان الذمة برئت ممن يقول بخلق أو بغير خلق[٣٢] .

وينفرد المسعودي من بين المؤرخين القدامى ، برواية تقول ان المتوكل « أمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة »[٣٣] . وقد فهم المؤرخون المتأخرون من هذه الرواية ان المتوكل تبنى مذهب اصحاب الحديث (السنة

والجماعة) ، لذلك عدّ بعضهم ان الخلفاء ثلاثة فقط ، أبو بكر (رض) في قتاله المرتدين ، وعمر بن عبدالعزيز في رد مظالم بني أمية ، والمتوكل في إحياء السنة[٣٤] . علىٰ أنا يجب أن نشير الىٰ أن المسعودي يذكر في أول روايته أن المتوكل « أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال ، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون » ، فروايته اذن مرتبكة ومتناقضة ، ولم يؤيده في روايته أي من مؤرخينا الرواد القدامىٰ ، فضلاً عن ان الحوادث التاريخية ـ كما روتها مصادرنا المتقدمة ـ لاتؤيد وجهة نظر المسعودي والمؤرخين المتأخرين ، ذلك أن المتوكل لم يقم بالقضاء علىٰ المعتزلة ، وإنما اكتفىٰ بعد مرور خمس سنوات علىٰ حكمه بعزل قاضي القضاة وحامل لواء الاعتزال ورجل المحنة الأول أحمد بن أبي دؤاد الأيادي من منصبه ، لأسباب مرضية ، ثم صادر أمواله وكذلك أموال ابنه أبي الوليد[٣٥] . أما جثة الشيخ أحمد بن نصر الخزاعي ، الذي أعدمه الواثق ، فقد أمر بإنزالها من الخشبة بعد مرور المدة نفسها ، أي بعد خمس سنوات من حكمه . وقد تعاطف بعض العامة من الناس مع المعدوم الشيخ أحمد ، وربما كان هذا التعاطف سيؤدي الىٰ ردود فعل عنيفة تجاه المعتزلة ومؤيديهم ، رداً علىٰ سياسة الكبت والعنف التي مارسها المعتزلة ، ودفعاً لما يظن البعض بأن الدولة اتخذت موقفاً عدائياً تجاه المعتزلة ، أو أنها تبنت مذهباً آخر ، أمر الخليفة بسجن البعض من هؤلاء الناس وضرب البعض الآخر ، وأجّل انزال الجثة من الخشبة الى مناسبة أخرىٰ « لما بلغه من تكثير العامة في أمره ، وبقي الذين أخذوا بسببه في الحبس حيناً » ، ثم أمر نائبه علىٰ بغداد « بمنع العامة من الاجتماع والحركة في مثل هذا وشبهه »[٣٦] .

وبذلك فإن المتوكل ، في رأينا ، أزال الآثار التي ترتبت علىٰ

تدخل الدولة بفرض مذهب معين ، ومن هنا كانت الفرحة عظيمة في نفوس العامة من الناس ، وفي نظر العلماء والفقهاء والقضاة ، وهذا قاضي البصرة ابراهيم بن محمد التيمي يعد الخليفة المتوكل حامي الدين ، وقارنه بالخليفتين أبي بكر الصديق (رض) وعمر بن عبدالعزيز[٣٧] . وهذا الشاعر أبو بكر بن الجنازة يقول في قصيدته التي يعكس فيها الشعور العام[٣٨] :

وبعد ؛ فان السنة اليوم أصبحت
معززة حتىٰ كأن لم تذلل
تصول وتسطو إذ أقيم منارها
وحط منار الأفك من عل

ويقول فيها :

خليفة ربي وابن عم نبيه
وخير بني العباس من منهم ولي
وجامع شمل الدين بعد تشتت
وفاري رؤوس المارقين بمنصل
اطال لنا رب العباد بقاءه
سليماً من الأهوال غير مبدل
وبوأه بالنصر للدين جنة
يجاور في روضاتها خير مرسل

الهوامــــش

١ ـ لاحظ أول خطبة لأبي العباس بعد إعلانه أول خليفة عباسي ، وخطبة عمه داود بن علي في الكوفة في الطبري : ٤٣٥/٧ ومابعدها .

٢ ـ الدكتور فاروق عمر فوزي : العباسيون الأوائل ٧٤/٢ .

٣ ـ لاحظ كل من خليفة بن خياط : التاريخ ٤٤٠/٢ ، ٤٦٥ . اليعقوبي : التاريخ ١٠١/٣ ، ١٢٨ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٣٨٩/٥ .

٤ ـ لاحظ الطبري : ٥٠٥/٧ ـ ٥٠٧ .

٥ ـ البلاذري : أنساب الأشراف ، القسم الثالث / ٢٣١ ـ ٢٣٥ . المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣٠٢/٣ ـ ٣٠٣ . البلخي : باب ذكر المعتزلة ٦٨ .

٦ ـ الطبري : ٥٦٩/٧ ـ ٥٧٠ .

٧ ـ الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ١٧٣ .

٨ ـ راجع الطبري : ١٣٣/٨ ، ١٥٦ ، ١٦٧ .

٩ ـ م . ن : ٢٣٤/٨ ، ٢٣٧ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ . الأزدي : تاريخ الموصل ٢٩٢ . المسعودي : مروج الذهب ٣٥٤/٣ ، وانظر كذلك خليفة بن خياط : ٨٣/٢ .

١٠ ـ قاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ٢٦٩ .

١١ ـ الطبري : ٥٧٧/٨ .

١٢ ـ المسعودي : مروج الذهب ٤٣٢/٣ .

١٣ ـ راجع الطبري : ٥٧٧/٨ .

١٤ ـ م . ن : ٦١٩/٨ .

١٥ ـ ابن ابي طاهر طيفور : بغداد في عهد الخلافة العباسية ١٨٤ ـ ١٩٠ ، وانظر الطبري : ٦٣١/٨ ـ ٦٤٤ .

١٦ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب : ٣٩/٢ .

١٧ ـ التاريخ : ١٩٦/٣ .

١٨ ـ الطبري : ٦٣١/٨ ومابعدها ، في حين يذكر اليعقوبي أنه طلب امتحانهم بفكرتي العدل والتوحيد ، مما يشعرنا بأنه امتحنهم بأصلين من أصول المعتزلة الخمسة ، انظر التاريخ : ٢٠٢/٣ .

١٩ ـ حنبل بن اسحاق بن حنبل ، مخطوطة ذكر محنة ابي عبدالله احمد بن حنبل ، ورقة ٢٦ ، ٢٧ ، دار الكتب المصرية ٢٠٠٠ تاريخ .

٢٠ ـ الكندي : الولاة والقضاة ٤٤٥ ومابعدها .
٢١ ـ الجاحظ : رسالة في نفي التشبيه ٢٨٣ .
٢٢ ـ راجع عن أبي حسن الدمشقي ، الطبري : ٦٤٣/٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، مخطوطة ، جـ ٦ ، وعن فقيه مصر الحارث بن مسكين اليعقوبي : ٢٠٠/٣ ـ ٢٠١ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢١٦/٨ ، الذهبي : العبر في خبر من غبر ٤٥٥/١ .
٢٣ ـ راجع اختلاف الروايات عن المحنة (المحاكمة) في اليعقوبي : ٢٠٦/٣ ، الجاحظ : حجج النبوة ، من رسائل الجاحظ ١٥٠ ومابعدها ، الأزدي : تاريخ الموصل ٤٨٧ ومابعدها .
٢٤ ـ التاريخ : ٢١٥/٣ .
٢٥ ـ الطبري : ١٤١/٩ .
٢٦ ـ م . ن : ١٣٥/٩ .
٢٧ ـ م . ن : ١٣٥/٩ ومابعدها ، ولاحظ اليعقوبي : ٢١٥/٣ ـ ٢١٦ ، المسعودي : مروج الذهب ٤٨٨/٣ .
٢٨ ـ الطبري : ١٤٢/٩ ، ولاحظ اليعقوبي ٢١٥/٣ .
٢٩ ـ د . فاروق عمر فوزي : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ١٢٨ .
٣٠ ـ التاريخ : ٢١٧/٣ ـ ٢١٨ .
٣١ ـ التاريخ : ١٩٠/٩ .
٣٢ ـ البدء والتاريخ : ١٢١/٥ .
٣٣ ـ مروج الذهب : ٣/٤ .
٣٤ ـ انظر أخبار القضاة لوكيع محمد بن خلف ١٨٠/٢ ، وعنه أخذ بقية المؤرخين ، انظر كذلك ابن الجوزي : مناقب الامام احمد بن حنبل ٣٥٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ٣٤٦ .
٣٥ ـ الطبري : ١٨٩/٩ ، ولاحظ اليعقوبي : ٢٢١/٣ ، وربما كانت مصادرة أموالها لها علاقة بالحملة التي شنها الخليفة ضد الأثراء غير المشروع ، يؤيد ذلك مصادرة أموال قاضي القضاة يحيى بن أكثم أيضاً في الوقت الذي لم يكن فيه من المعتزلة : انظر الطبري : ١٩٧/٩ ـ ١٩٨ .
٣٦ ـ م . ن : ١٩٠/٩ .
٣٧ ـ وكيع : اخبار القضاة ١٨٠/٢ .
٣٨ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ٣٤٦ .

الفصل الثاني

التوجه العربي

هناك روايات عديدة تؤكد على أن المنصور هو البادىء في استخدام الأتراك في الادارة والجيش العباسي[1] ، وكان للأتراك دور في القضاء على حركة أحد الخوارج في عهد الخليفة المهدي[2] . وكذلك هناك اشارات الى استخدامهم في عهد الخليفة الرشيد[3] . وقد اشترك الأتراك في الحرب الأهلية ، فبعضهم كان في الجيش المؤيد للأمين والبعض الآخر في جيش المأمون[4] . وفي رواية أن المأمون أمر أخاه الأمير ابا اسحاق (المعتصم) بشراء الأتراك[5] . ويؤكد اليعقوبي أن المأمون هو البادىء باستخدام الأتراك[6] ، أما المسعودي فإنه يعد الخليفة المعتصم هو الذي استكثر منهم لكونه « يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم »[7] . على أننا يجب أن نستدرك فنقول أن الخليفة المعتصم شكل فرقة عسكرية أخرى جديدة من العرب اليمانية والقيسية ، من الذين استوطنوا شمالي افريقية بعد حروب التحرير العربية ، ويطلق عليهم المؤرخون اصطلاح « المغاربة »[8] ، ولقد أسكنهم الخليفة المعتصم في سامراء عند بداية اتخاذها عاصمة[9] ، مما يدل على أهميتهم في تلك الحقبة هذا في الوقت الذي تشير في روايات أخرى الى أن الخليفة المأمون ضم الى جيش أخيه أيضاً الثوار من القيسية في أرمينية ، وفرض لهم ، وكذلك ضم اليه فرقة أخرى بقيادة خالد بن يزيد الشيباني مع عشيرته « وخلق عظيم من ربيعة »[10] .

ان حاجة الجيش العباسي الى قوة ضاربة جديدة أدركها الخلفاء العباسيون دوماً ، وكانت هذه القوة من عناصر مختلفة ، عرب وغير عرب ، الا ان الذي يهمنا هنا الأتراك والاشروسنية والفراغنة وغيرهم من الجند الجديد ، والذين لم يكونوا سوى موالي للخليفة ، ويضعون الولاء للخلافة العباسية فوق كل اعتبار[11] ، فضلاً عن قوة شخصية

الخلفاء الأوَل بحيث استطاعوا أن يحدوا من مطامع أو تطلع أي قائد منهم ، مهما كانت منزلته ، فمثلاً عندما انتصر القائد الأفشين علىٰ بابك الخرمي وحركته الشعوبية ، كرّمه الخليفة المعتصم احسن تكريم معنوياً ومادياً ، الا ان الخليفة أمر بالقضاء عليه عندما أحس منه تطلعات أعجمية ، أو مطامع[١٢] .

ولقد بدأت خطورة العسكريين المجندين المرتزقة في وقت مبكر ، حيث اشترك بعضهم في مؤامرة العباس بن المأمون لاغتيال الخليفة المعتصم عندما كان في الجبهة البيزنطية ، وبعد انكشاف المؤامرة قتل المتآمرون أو سجنوا ، ويشير الطبري الىٰ أن قسماً منهم كان من هؤلاء المرتزقة فيقول : « وقتل باقي القواد ومن لم يحفظ اسمه من الأتراك والفراغنة »[١٣] .

وفي عهد الخليفة الواثق بدأت هذه العناصر تتبوأ مناصب ادارية ، فضلاً عن المناصب القيادية العسكرية ، فكان اشناس والياً علىٰ الأقاليم من غرب العراق الىٰ افريقية ، وعين من قبله عمالاً لادارة تلك الأقاليم[١٤] ، وقام الواثق بتتويجه « وألبسه وشاحين من الجوهر »[١٥] . أما ايتاخ التركي فكان والياً علىٰ كور دجلة والسند[١٦] . ويفهم من الطبري أنه كان والياً علىٰ اليمن أيضاً[١٧] . وعند وفاة أشناس جعل الواثق « مرتبته وأكثر أعماله الىٰ ايتاخ التركي »[١٨] . أما وصيف التركي فإن الخليفة كرّمه عندما قضىٰ علىٰ حركات المتمردين في اقليمي فارس والجبال وقلده سيفاً[١٩] .

كان أول نجاح سياسي حققه العسكريون المرتزقة الأجانب عندما توفي الخليفة الواثق ، الذي لم يعالج ولاية العهد ، معالجة حكيمة تتصف بالحكمة وبعد النظر ، فقد توفي ولم يعهد بالخلافة الىٰ

أحد بعده ، فكان تنصيب أخيه جعفر (المتوكل) بترشيح العسكريين ايتاخ ووصيف وبغا ، مع بعض الاداريين كالوزير محمد بن عبدالملك الزيات والكاتبين أحمد بن خالد أبي الوزير ، وعمر بن فرج الرضجي فضلاً عن قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد الأيادي[٢٠] ، ويضيف اليعقوبي الىٰ المجموعة العسكرية سيما التركي ، وكان هو ووصيف أول من بايع الخليفة الجديد[٢١] .

ان خطورة العسكريين لم تكن تكمن بوجود حفنة من القادة الطموحين فحسب بل ان القوة الضاربة العربية الجديدة « المغاربة » اعترضت علىٰ عدم مساواتها في منحة الرواتب ـ والتي تعطىٰ عادة عند تنصيب خليفة جديد ـ ، يذكر الطبري : « أنه لما أمر (المتوكل) للأتراك برزق أربعة أشهر . . أمر للمغاربة برزق ثلاثة أشهر ، فأبوا أن يقبضوا . . ، وتكلم وصيف فيهم حتىٰ رضي عنهم ، فأعطوا ثلاثة ، ثم أجروا بعد ذلك مجرىٰ الأتراك »[٢٢] .

أدرك الخليفة المتوكل خطورة تدخل هؤلاء العسكريين في أمور سياسية وادارية ، بعيدة عن تخصصهم ، فضلاً عن ادراكه عدم قناعة هؤلاء بالامتيازات التي يتمتعون بها ، بل كانوا يطالبون بالمزيد ، علىٰ أن الأهم من ذلك هو تعاظم نفوذهم علىٰ حساب العرب ، لذلك برز العامل القومي في سياسة المتوكل تجاه تزايد نفوذ العسكريين المرتزقة الأجانب ، علىٰ أن لهذا العامل أوجه عديدة أبرزها :

القضاء علىٰ القائد ايتـاخ :

يلاحظ الباحث علىٰ رواية الطبري ان القائد ايتاخ حاول مرة اغتيال الخليفة المتوكل في منطقة القاطول عندما كان يتنزه[٢٣] ، ويؤكد ذلك اليعقوبي في روايته فيشير الىٰ أنه « اتصل بالمتوكل انه كان علىٰ ايقاع

الحيلة به »[٢٤] ، في الوقت الذي كان ايتاخ متبوئاً مناصب عديدة وخطيرة ، أهمها الاشراف على الجيش وفرقه الجديدة من مغاربة وأتراك وبقية الموالي ، فضلاً عن اشرافه على البريد والحجابة ، على خطورتها ، ودار الخلافة أيضاً ، يقول الطبري : « فلما ولي المتوكل كان ايتاخ في مرتبته ، اليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة »[٢٥] . لذلك لانستغرب ان يفكر الخليفة ، وبسرعة ، في القضاء على هذا القائد ، فأرسل اليه من شجعه على السفر الى حج عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م تمهيداً لابعاده عن قواته المواليه له ، أي مصدر قوته ، وأسرع الخليفة بنقل الحجابة الى القائد وصيف[٢٦] ، وأوعز الخليفة الى أمير الحج جعفر بن دينار الخياط (أمير اليمن) بتشجيع ايتاخ للاسراع بالعودة الى العراق[٢٧] ، وفي طريق العودة وعند اقترابه من الكوفة ، أرسل اليه الخليفة الحاجب سعيد بن صالح ومعه الهدايا ، وفي الوقت نفسه اتفق الخليفة مع نائبة على بغداد وصاحب شرطته اسحاق بن ابراهيم بضرورة تشجيع ايتاخ على زيارة بغداد تمهيداً لاعتقاله بعد تدبير خطة محكمة لإبعاده عن جنده الموالين له ، فأرسل اسحاق بن ابراهيم الى ايتاخ كتاباً يذكر فيه ان الخليفة المتوكل أمر بأن يدخل بغداد ، وأن يتم استقباله استقبالاً رسمياً وشعبياً ، وهكذا تم اعتقاله في أحد القصور مع ثلاثة أو أربعة من اتباعه (حرسه الخاص) وقيّد بالحديد ، وقلل عنه الأكل حتى توفي في المعتقل ، ويقول الطبري في روايته : (ولو لم يؤخذ ببغداد ، ماقدروا على أخذه ، ولو دخل الى سامراء فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك »[٢٨] . وهذا دليل على مدى قوته وسيطرته من جهة ، وان بغداد كانت أنسب مدينة لاعتقاله وسجنه من الجهة الأخرى ، دون أن يجد له نصيراً ،

حيث أنها معروفة بميولها المعادية للأتراك ولتسلط الجيش[٢٩] .

تنظيم ولاية العهـد :

أدّت الطريقة التي تم بها اختيار جعفر (المتوكل) ليكون خليفة الىٰ شعور هؤلاء الأتراك المرتزقة بأهميتهم ، وبالتالي ازدياد نفوذهم ، فقد رفض الواثق تسمية خلف له قائلاً : « لايراني الله اتقلدها حياً وميتاً »[٣٠] ، فاختار العسكريون ابنه الصغير ، لكن اعتراض وصيف بقوله : « اما تتقون الله تـولون مثـل هذا الخـلافة وهـو لايجوز معـه الصلاة »[٣١] ، أدىٰ الىٰ عدولهم الىٰ اختيار جعفر (المتوكل) بعـد أن استعرضوا اسماء عديدة من البيت العباسي .

بعد هذه التجربة المريرة التي مرّ بها الخليفة ، ومحاولةً منه لمنع تكـرارها من العسكـريين ، ولابعـاد هؤلاء المرتـزقة عن ادارة بعض الأقاليم « أمر المتوكل أن يسلم الناس علىٰ ابنه محمد بالإمرة ويدعوا له علىٰ المنابـر ، فكتب بذلـك الىٰ الآفاق »[٣٢] ، وكـان ذلـك في عـام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م ، وبعدها بعام واحد اتخذ قراره بتنظيم ولاية العهد بين أبنائه الثلاثة محمد المنتصر والمعتز والمؤيد ، وعقد لكل واحد منهم لوائين ، أحدهما أسود ، وهو لواء العهد ، والآخر أبيض ، وهو لواء العمل[٣٣] ، وقسم الأقاليم بينهم كالآتي :

١ ـ الأمـير محمد المنتصـر : افريقيـا والمغـرب والثغـور الشـاميـة والجزرية ، والجزيرة ، والسواد ، والحرمـين ، والجبال ، والسنـد ، والأحواز ، وأقاليم أخرىٰ .

٢ ـ الأمير أبي عبيدالله المعتز : خراسان ، وفارس ، وطبرستان ، والري ، واذربيجان .

٣ ـ الأمـير ابراهيم المؤيـد : جنـد دمشق ، وحمص ، والأردن ،

وفلسطين[٣٤] .

ولما كان الاميران الاخيران صغيري السن ، عين الخليفة المتوكل لكل منهما كاتباً يشرف على ادارة اقاليمه[٣٥] .

وقد جرى احتفال كبير في مدينة سامراء بمناسبة هذه البيعة ، حضرته الوفود من جميع البلدان ، فأمر الخليفة بمنحهم الجوائز ، وأعطى الجيش منحة رواتب لعشرة أشهر ، وأرسل الخطباء ليذيعوا الخبر بين الناس[٣٦] .

ومهما قيل بأن اجراءات المتوكل تعيد الى الأذهان اجراءات الرشيد وأخطائه التي أدت الى الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون ، الا أن الخليفة ـ ربما ـ كان يرغب في تشتيت جبهة القادة العسكريين المرتزقة ، بحيث جعل من الأمراء الثلاثة هدف العسكريين ، فكان البعض يؤيد هذا الأمير والآخر يؤيد ذاك ، وبذلك تجنب الخليفة توحدهم ضده ، في هذه المرحلة في الأقل .

تشكيل فرقة عسكرية جديدة :

كانت نتيجة كره الخليفة المتوكل للقادة العسكريين الأتراك ، أن شكل فرقة عسكرية جديدة يكون ولاؤها لابنه المعتز ، الذي كان يشرف على تدبير شؤونه الوزير عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، وهو يمثل كتلة من الاداريين وأصحاب الخليفة على رأسها الفتح بن خاقان ، يقول المسعودي : « وجفى ـ المتوكل ـ الموالي من الأتراك واطرحهم ، وحط مراتبهم ، وعمل على الاستبدال بهم ، والاستظهار عليهم ، وضم الى وزيره عبيدالله بن يحيى بن خاقان نحواً من اثني عشر ألفاً من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز »[٣٧] ، على أن هذه الفرقة لم تكن من العرب والصعاليك فحسب وانما كانت من عناصر مختلفة ،

« من الأبناء والعجم والارمن والزواقيل والأعراب والصعاليك وغيرهم » ، أما عددهم « فقال بعضهم كانوا زهاء عشرين ألف فارس ، وقال آخرون : كان معه ـ أي عبيدالله ـ ثلاثة عشر ألف رجل ، وقال آخرون : كان معه ثلاثة عشر ألف لجام ، وقال المقللون : مابين الخمسة آلاف الى العشرة آلاف »[٣٨] .

ان تشكيل هذه الفرقة ادى الى ان يقل العطاء لفرق الجيش القديمة ، فكان ذلك من الأسباب التي حملت الفرق القديمة على الشغب بمناسبة أو بدون مناسبة ، والمطالبة برواتبهم ، يقول المسعودي : « وضاق عليهم المال ، بشركة هؤلاء »[٣٩] .

محاولة نقل العاصمة الى دمشق :

فكر الخليفة المتوكل بالابتعاد عن سامراء ، في محاولة للابتعاد عن تأثير العسكريين المرتزقة الأجانب . ففي عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م غادر الخليفة سامراء باتجاه مدينة بغداد ، فتنقل في مناطق عديدة من بغداد ، وتجول في أسواقها وشوارعها ، ثم نزل الزعفرانية ومن ثم الى المدائن[٤٠] . ولم تذكر مصادرنا الدوافع وراء هذه الزيارة ، ولعله فكر في اعادتها عاصمة للدولة .

وفي عام ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م قرر الخليفة الرحيل الى دمشق ، فأمر قبل السفر باعداد القصور والمنازل ، وأمر بإصلاح الطرق والمراقد[٤١] ، وقد استمرت رحلته في حدود ثلاثة أشهر ، وكانت نيته اتخاذ دمشق عاصمة للدولة « وعزم على المقام بها ، ونقل دواوين الملك اليها ، وأمر بالبناء بها »[٤٢] ، الا ان الطغمة العسكرية أدركت أهدافه ، لذلك تحرك الجند يطالبون بأرزاقهم وأرزاق عوائلهم[٤٣] ، ويقول المسعودي في رواية له : « شغب الجند ، واجتمعوا وضجوا

يطلبون الأعطية ، ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرمي بالنشاب »[44] ، ويؤكد ذلك اليعقوبي بقوله : « وبلغه عن بعض الأتراك أمر كرهه »[45] . وفي رواية أخرى للمسعودي ، ان الأتراك حاولوا اغتيال الخليفة في دمشق ، الا أن معارضة بغا الكبير حالت دون تنفيذ مخططهم ، لكنهم حاولوا الوقيعة بين الخليفة والقائد بغا ، يقول المسعودي : « وقد كان الأتراك قد رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق ، فلم يمكنهم فيه حيلة ، بسبب بغا الكبير ، فانهم دبروا أبعاده عنه »[46] . لذا قرر الخليفة ، بعد شهرين ، العودة الى سامراء ، وكان قرار العودة قراراً حكيماً ، ذلك ان الشام معروفة بميولها الأموية ، فليس من المنطقي أن تساند خليفة عباسياً ، لكن روايتنا التاريخية قد بررت عودة الخليفة الى سامراء ورجوعه عن قراره باتخاذ دمشق عاصمة بأنه « استوبأ البلد ، ذلك أن الهواء بها ندي ، والماء ثقيل ، والريح تهب فيها مع العصر ، فلاتزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث ، وغلت فيها الأسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة »[47] . هذه الرواية تتناقض مع رواية أخرى للمسعودي ، حيث يشير فيها الى ان الخليفة لم يستقر في دمشق لتكاثف هواء الغوطة عليها ، ومايرتفع من بخار مياهها ، لذلك نزل في قصر المأمون الذي يقع في منطقة تبعد ساعة عن المدينة بين داريا ودمشق[48] . حتى ان اليعقوبي يبرر رغبة الخليفة في اتخاذ دمشق عاصمة « أنه وصف له برد هوائها وكان محروراً »[49] ، في الوقت الذي كان فيه الخليفة في دمشق خلال فصل الصيف ، وبالذات خلال شهري حزيران وتموز من عام ٨٥٨ م[50] . ان تناقض هذه الروايات يشعرنا أنها تحاول تبرير فشل الخليفة في اتخاذ دمشق عاصمة ، دون ان تصرح بأن الجند التركي هو وراء فشل المحاولة بالدرجة الأولى .

الهوامـــش

١ ـ الطبري : ٨/٦٣، ٩٢، ٢٣٤. الأزدي : ٢٠٧ . البلاذري : فتوح البلدان ٢/٣٦١ . الجهشياري : الوزراء والكتاب ١٣٤ . الجاحظ : رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ٥٣ . ابن اسفنديار : تاريخي طبرستان (بالفارسية) ١٧٥ .

٢ ـ خليفة بن خياط : ٢/٤٧٥ .

٣ ـ م . ن : ٢/٤٨٥ ، الجاحظ : رسالة في مناقب الترك ٤٥ .

٤ ـ الطبري : ٨/٣٩٣ ، ٤٦١ . مروج الذهب : ٣/٣٩٠ .

٥ ـ ابن قتيبة : المعارف ٣٩١ .

٦ ـ البلدان : ٢٥٥ .

٧ ـ مروج الذهب : ٣/٤٦٥ ، التنبيه والاشراف : ٣٥٤ .

٨ ـ مروج الذهب : ٣/٤٦٥ .

٩ ـ اليعقوبي : البلدان ٢٦٣ .

١٠ ـ اليعقوبي : التاريخ ٣/١٩٨ ، ١٩٩ .

١١ ـ الجاحظ : رسالة في مناقب الترك ٢٤ .

١٢ ـ راجع اليعقوبي : ٣/٢١٦ ، الطبري : ٩/٥٥ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ومابعدها .

١٣ ـ الطبري : ٩/٧٩ ، مسكويه : تجارب الأمم ٦/٥٣ .

١٤ ـ اليعقوبي : ٣/٢٦٣ .

١٥ ـ الطبري : ٩/١٢٤ .

١٦ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٣ .

١٧ ـ الطبري : ٩/١٢٨ .

١٨ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٤ .

١٩ ـ الطبري : ٩/١٤١ .

٢٠ ـ م . ن : ٩/١٥٤ ـ ١٥٥ .

٢١ ـ التاريخ : ٣/٢١٧ .

٢٢ ـ الطبري : ٩/١٥٥ .

٢٣ ـ م . ن : ٩/١٦٧ .

٢٤ ـ التاريخ : ٣/٢١٨ .

٢٥ ـ الطبري : ٩/١٦٧ .

٢٦ ـ م . ن : ٩/١٦٧ .

٢٧ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٨ .

٢٨ ـ م . ن : ٣/٢١٨ . الطبري : ٩/١٦٨ ـ ١٦٩ .

٢٩ ـ د . عبدالعزيز الدوري : العصور العباسية المتأخرة ٤٥ ـ ٤٦ . د . فاروق عمر : الخلافة العباسية ٢٣٠ .

٣٠ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٦ .

٣١ ـ الطبري : ٩/١٥٤ .

٣٢ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٨ .

٣٣ ـ الطبري : ٩/١٧٥ ـ ١٧٦ .

٣٤ ـ م . ن : ٩/١٧٦ .

٣٥ ـ اليعقوبي : ٣/٢٢٠ .

٣٦ ـ م . ن : ٣/٢٢٠ .

٣٧ ـ التنبيه والاشراف : ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

٣٨ ـ الطبري : ٩/٢٢٩ .

٣٩ ـ التنبيه والاشراف : ٣٦٢ .

٤٠ ـ الطبري : ٩/١٩٥ .

٤١ ـ اليعقوبي : ٣/٢٢٤ .

٤٢ ـ الطبري : ٩/٢١٠ .

٤٣ ـ م . ن : ٩/٢١٠ .

٤٤ ـ مروج الذهب : ٤/٣٢ ـ ٣٣ .

٤٥ ـ اليعقوبي : ٣/٢٢٤ .

٤٦ ـ لاحظ التفاصيل في مروج الذهب : ٤/٣٣ .

٤٧ ـ الطبري : ٩/٢١٠ .

٤٨ ـ مروج الذهب : ٤/٣٣ .

٤٩ ـ اليعقوبي : ٣/٢٢٤ .

٥٠ ـ راجع د. الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ٤٧ ، الذي ينقل رأي ميور بأن الخليفة كان في دمشق بين شهري مايس وتموز .

الفصل الثالث

الاصلاح الاداري والاقتصادي

في محاورة بين الخليفة الواثق واصدقائه ذكر الخليفة الرشيد ، وكيف أمر بالقضاء على البرامكة ، وأن من جملة اسباب القضاء عليهم ، احتجانهم الأموال دونه[1] ، ويظهر من خلال الرواية نفسها ، ان الواثق لمس تفشي الرشوة والفساد ، والإثراء غير المشروع في الجهاز الإداري ، وانعكاس ذلك على سلوك الوزراء وكبار الموظفين مع الناس ، فقد عاملوا العامة من الناس بقسوة ، في الوقت الذي أثروا فيه بطرق غير مشروعة ، فاشتكى منهم العامة من الناس الى الخليفة الواثق[2] . فكانت النتيجة ان اتخذ الواثق قراراً على جانب كبير من الأهمية ، وهو إلقاء القبض على كبار الموظفين ومصادرة أموالهم ، فقد صودرت أموال الكتاب ، أحمد بن ابي اسرائيل ، وسليمان بن وهب ، والحسن بن وهب ، وأحمد بن الخصيب وكتابه ، وابراهيم بن رباح وكتابه ، ونجاح بن سلمة ، وأبي الوزير أحمد بن خالد ، « سوى ماأخذ من العمال بسبب عمالاتهم »[3] .

ويظهر أن قصر مدة خلافة الواثق أدى الى عدم استئصال الفساد الاداري ، لذلك وقع العبء الأكبر على عاتق الخليفة المتوكل ؛ فاتخذ عدة خطوات على طريق الاصلاح على جانب كبير من الأهمية .

ففي بداية عام ٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م وبعد أربعين يوماً على استخلافه أمر بالقاء القبض على الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ومصادرة أمواله[4] .

وقد اختلف مؤرخونا الرواد في أسباب اعتقال الوزير الزيات ومصادرة أمواله ؛ فاليعقوبي يعزو السبب الى خشونة الوزير وتعاليه ، يقول : « وكان محمد رجلاً شديد القسوة ، قليل الرحمة ، جباهاً للناس ، كثير الاستخفاف بهم ، لايعرف له احسان الى أحد ،

ولامعروف عنده ، وكان يقول : الحياء خنث ، والرحمة ضعف ، والسخاء حمق »[٥] . في حين يعزو الطبري السبب الىٰ سوء معاملته للمتوكل عندما كان أميراً في عهد أخيه الواثق ، يقول : « وكان الواثق قد غضب علىٰ أخيه جعفر المتوكل لبعض الأمور ، . . . ، فصار جعفر الىٰ محمد بن عبدالملك يسأله ان يكلم أخاه الواثق ليرضىٰ عنه ؛ فلما دخل عليه مكث واقفاً بين يديه ملياً لايكلمه ، ثم أشار اليه ان يقعد ، فقعد ؛ فلما فرغ من نظره في الكتب ، التفت اليه كالمتهدد له ، فقال : ماجاء بك ؟ قال : جئت لتسأل أمير المؤمنين الرضا عني ، فقال لمن حوله : انظروا الىٰ هذا ، يُغضِب أخاه ، ويسألني ان أسترضيه له ، إذهب ، فإنك اذا صلحت رضي عنك ، فقام جعفر كئيباً حزيناً لما لقيه به من قبح اللقاء والتقصير به »[٦] . ولم يكتف الوزير بذلك ، بل حرّض الخليفة عليه بأن ذكر له أن جعفر جاءه « بزي المخنثين له شعر قفا » ، فأمره الخليفة أن يوعز الىٰ من يجز شعر قفاه ، ويضرب به وجهه ، ويقول المتوكل عن ذلك : « فما دخلني من الجزع علىٰ شيء مثل مادخلني حين أخذني علىٰ السواد الجديد ، وقد جئته فيه طامعاً في الرضا ، فأخذ شعري عليه »[٧] .

وفي رواية أخرىٰ يشير الطبري الىٰ سبب آخر ، ذلك أن الوزير الزيات أشار بابن الواثق ليكون خليفة بعد موت أبيه ، في الوقت الذي كان فيه الأمير جعفر ينتظر في حجرة مجاورة[٨] .

علىٰ أن السبب الرئيس ـ في رأينا ـ يعود الىٰ استمرار الخليفة المتوكل علىٰ السياسة نفسها التي انتهجها اخوه الواثق في التصدي للفساد الاداري وتفشي الفساد والرشوة ، فبعد أن تم القبض علىٰ الوزير الزيات ، صودرت أمواله فوراً ، وبطريقة دعائية ، حيث

« قبض مافي منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان . . ووجه (المتوكل) راشداً المغربي الىٰ بغداد في قبض ماهنالك من أمواله وخدمه » ، وأمر بمصادرة ضياعه وضياع أهل بيته حيثما كانت[٩] ، فذهب راشد المغربي الىٰ بغداد فاحتجز المشرف علىٰ ادارة أمواله ، واحتجز عدة من أهل بيته ، « ووجدت له بيوت فيها أنواع التجارة من الحنطة والشعير والدقيق والحبوب والزيت والزبيب والتين وبيت مملوء ثوماً ، فكان جميع ماقبض له مع قيمته تسعين ألف دينار »[١٠] . وقد عذب الوزير في معتقله حتىٰ وفاته[١١] .

لم تمر إلاّ مدة قصيرة حتىٰ أمر الخليفة المتوكل بالقبض علىٰ كبير الموظفين الاداريين ، عمر بن فرج الرخجي ، واعتُقل أيضاً أخوه محمد ، الذي كان والياً علىٰ مصر ، بعد استدعائه ، ثم أمر الخليفة بمصادرة أموالهما ؛ فكانت أموالاً جليلة[١٢] .

وقد قوّم المسعودي أموال الأول بـ (١٢٠) ألف دينار ، وأموال الثاني بـ (١٥٠) ألف دينار[١٣] . وقد بقي الأول محبوساً مدة سنتين في سامراء[١٤] ، أما أخوه محمد فإنه حبس في بغداد حتىٰ وفاته[١٥] . ويظهر أن الخليفة رأف بحال محمد بن فرج حيث وافق علىٰ أن يدفع عشرة ملايين درهم تعويضاً ، وأعيدت له أمواله في الأحواز[١٦] .

وفي العام نفسه ٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م أمر الخليفة بالقبض علىٰ ابراهيم بن الجنيد النصراني ، وكان أخاً لأحد كبار الموظفين ، وأجبر تحت التهديد علىٰ تسليم (٧٠) ألف دينار للخزينة ، وأُرسل مبارك المغربي الىٰ بغداد واستخرجها من بيته ، ولم يكتف الخليفة بمصادرة أمواله ، وانما عاقبه بالسجن[١٧] .

وبعد مدة وجيزة أمر الخليفة بالقبض علىٰ مجموعة من كبار

الموظفين ، وتمت محاسبتهم على الأموال التي جمعوها بطرق غير مشروعة ، وكانت نتائج هذه المحاسبة ، ان صودرت أموال الكاتب أبي الوزير أحمد بن خالد ، الذي كان مشرفاً على ديوان زمام النفقات ، كما صودرت منه بدورَ دراهم وحلي ، ومن الأمتعة (٦٢) سفطاً ، و(٣٢) غلاماً وفرشاً كثيراً . وتم اعتقال الكاتب محمد بن عبدالملك ، أخي الكاتب الكبير موسى بن عبدالملك ، كما اعتقل الهيثم بن خالد النصراني ، وقد صودرت أموال ابن أخيه سعدون بن علي ، وصودرت أموال ابني أخيه ، عبدالله وأحمد ، التي قومت بما يزيد على (٣٠) ألف دينار .

وكان الفضل بن مروان ـ وكان وزيراً أيام المعتصم ـ المسؤول عن ديوان الخراج ، ممن شملته اجراءات المتوكل لاصلاح الادارة ، حيث عزله من منصبه[١٨] ، الا أن رواية أخرى تذكر أن الخليفة صادر أمواله أيضاً[١٩] .

عين الخليفة موظفين جدداً في بعض المناصب ؛ فعين محمد بن الفضل الجرجرائي كاتباً ، وولي يحيى بن خاقان الخراساني ـ مولى الأزد ـ ديوان الخراج ، وابراهيم بن العباس بن محمد بن صول ـ ديوان زمام النفقات[٢٠] . وموسى بن عبدالملك بن هشام ـ ديوان الضياع .

لقد كان يحيى بن خاقان الخراساني وموسى بن عبدالملك محبوسين لاتهامهما بالإثراء غير المشروع[٢١] ، ويدلنا ذلك على أن الخليفة لم يجد موظفين فوق الشبهات لتعيينهم في تلك المناصب .

يظهر ان الخليفة المتوكل اتجه هذه المرة نحو بغداد ، فما أن عُيِّن محمد مكان أبيه المتوفى اسحاق بن ابراهيم نائباً على بغداد ، حتى أرسل النائب الجديد كبار موظفيه الى سامراء ، حيث اعتقلوا وأهينوا

بالضرب ، وعين الخليفة من قبله علي بن عيسىٰ علىٰ ديوان الخراج الأعظم ، وبعد شهرين عزله ، وربما اكتشف عدم كفاءته ، فاختار رجلاً كفءاً وفوق الشبهات ، وهو أحمد بن محمد بن مدبر ، حيث عينه علىٰ ديوانه الخراج الأعظم . وقد نهض هذا الكاتب بأعباء هذا الديوان خير نهوض ، واتخذ عدة اجراءات اصلاحية ؛ منها مصادرة أموال ابني الكاتب السابق علي بن عيسىٰ ، الحسين واسماعيل ، وحاسب بقية الموظفين المشرفين علىٰ جباية السواد محاسبة عسيرة ولم يطلق سراحهم الا بعد أن دفعوا أموالاً جليلة الىٰ خزينة الدولة .

وقد أشرف الكاتب أحمد بن محمد بن مدبر بنفسه علىٰ سبعة دواوين وهي : الخراج ، الضياع ، النفقات العامة ، النفقات الخاصة ، الصدقات ، الموالي والغلمان ، الجند والشاكرية ، وبذلك « وفّر أموالاً عظيمة »[22] ، مما يدل علىٰ مدىٰ كفاءته ومقدرته ونزاهته .

وعلىٰ الرغم من أن الكاتب نجاح بن سلمة من الذين صودرت أموالهم في عهد الخليفة الواثق ، الا ان الخليفة المتوكل استعان به للإشراف علىٰ ديوان التوقيع ، والتتبع علىٰ العمال ، « فكان جميع العمال يتقونه ويقضون حوائجه ، ولايقدرون علىٰ منعه من شيء يريده ، وكان المتوكل ربما نادمه »[23] ، ويفهم من رواية أخرىٰ أن نجاح بن سلمة كان علىٰ علاقة وثيقة بالخليفة[24] ، وقد اصطدم بكتلة الوزير عبيدالله بن يحيىٰ بن خاقان ، التي استطاعت اقناع الخليفة بإلقاء القبض عليه ، ومحاسبته علىٰ مااقترفت يداه بحق الناس والخزينة ، يشير اليعقوبي الىٰ ان نجاح بن سلمة « لايزال يتنضح بأموال الناس » ، لذلك كلف الخليفة الكاتبين موسىٰ بن عبدالملك بن هشام ـ مسؤول ديوان الخراج ، والحسن بن مخلد بن الجراح ـ مسؤول ديوان الضياع

بمحاسبته ، فاستطاعا اجباره قسراً على تسليم مليوني دينار الى الخزينة ، وتوفي بعد ذلك من أثر التعذيب[٢٥] . وقد شملت اجراءات المصادرة ابنين له ، حيث أُلقي القبض على أحدهما وأُجبر على الاعتراف بأمواله وأموال أخيه ومقدارها (١٤٠) ألف دينار « سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامراء وبغداد ، وسوى ضياع لهما كثيرة ، فأمر بقبض ذلك كله ، وضُرب مراراً بالمقارع » ، أما ابنه الأخر فانه هرب الا أنه ألقي القبض عليه وأُجبر وكيله على تسديد (٢٠) ألف دينار الى الخزينة ، كما أخذ بقية موظفيه واعتقلوا[٢٦] .

وهكذا لم يقف الخليفة المتوكل مكتوف اليدين ازاء تدهور الادارة ، وتفشي الفساد بين الوزراء وكبار الموظفين ، الا ان اجراءاته كانت تنقصها في بعض الأحيان اجراءات أخرى متممة لها ، كتعيين وزراء اكفاء ، وتحسين مستوى أداء جهاز المراقبة ، وغير ذلك من الاجراءات الادارية التي تحفظ للخزينة حقها .

ومن الضروري ان نشير هنا الى ان الخليفة المتوكل اجرى اصلاحاً آخر لصالح سكان شمشاط في الثغور ، فقد جعل الضرائب عشرية بدلاً من خراجية ، وبذلك رفع عن كاهلهم مبلغ الضريبة الخراجية التي تصل الى النصف احياناً[٢٧] . ويظهر أن السبب يعود الى تشجيعه السكن فيها وزراعتها ، حيث أنها منطقة حدودية مع البيزنطيين ، وحتى يسهل الدفاع عنها .

على أن أهم اصلاح اقتصادي ـ زراعي اجراه الخليفة المتوكل أنه أمر بتأخير موعد جباية الخراج من نيسان الى ١٧/حزيران[٢٨] . وهو اصلاح زراعي مهم ، فقد كان الخراج يجبى قبل موعد نضج الزرع ، فيضطر الفلاحون الى الاقتراض ، وبعضهم يترك أرضه لعدم

استطاعته دفع الضريبة ، وقد رحب الوزير عبيدالله بن يحيىٰ بن خاقان بمبادرة الخليفة هذه ، لذلك لانستغرب عندما يصف المسعودي مدة خلافة المتوكل بأنها « أحسن أيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل »[٢٩] ، ويصفها بمكان آخر « وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء ، كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ، ورخص السعر ، وأماني الحب وأيام الشباب »[٣٠] .

ويظهر أن المسعودي من المعجبين بعهد الخليفة المتوكل ، حتىٰ أنه يذكر عنه « ولايعلم أحد في صناعة في جد ولاهزل الا وقد حظي في دولته ، وسعد بأيامه ، ووصل اليه نصيب وافر من ماله »[٣١] . وينقل ابن الكازروني قولاً للمتوكل يعكس مفهومه للحياة وهو : « لذة الدنيا في الدعة والسعة »[٣٢] ، ويظهر من هذه الروايات المتعددة مدىٰ التقدم والرفاهية والعدل والازدهار الذي حل بين الناس .

الهوامـش

١ ـ الطبري : ٩/١٢٦ ـ ١٢٧ .

٢ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٤ .

٣ ـ راجع تفصيلات تلك الأموال في الطبري : ٩/١٢٥ ، اليعقوبي : ٣/٢١٤ .

٤ ـ اليعقوبي : ٣/١٢٧ ، الطبري : ٩/١٥٦ ، مروج الذهب : ٤/٥ .

٥ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٧ .

٦ ـ الطبري : ٩/١٥٦ .

٧ ـ م . ن : ٩/١٥٧ .

٨ ـ م . ن : ٩/١٥٧ ـ ١٥٨ .

٩ ـ م . ن : ٩/١٥٨ ـ ١٥٩ .

١٠ ـ م . ن : ٩/١٦٠ ـ ١٦١ .

١١ ـ راجع التفصيلات في الطبري : ٩/١٥٨ ، ومابعدها ، مروج الذهب : ٤/٥ .

١٢ ـ راجع تفصيلات تلك الأموال في : م . ن : ٩/١٦١ .

١٣ ـ مروج الذهب : ٤/١٩ .

١٤ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٨ .

١٥ ـ مروج الذهب : ٤/٢٠ .

١٦ ـ الطبري : ٩/١٦١ ، مروج الذهب : ٤/١٩ ، حيث يشير الى أنه دفع (٢١) مليون درهم .

١٧ ـ الطبري : ٩/١٦٢ .

١٨ ـ م . ن : ٩/١٦٢ .

١٩ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٨ .

٢٠ ـ الطبري : ٩/١٦٢ .

٢١ ـ اليعقوبي : ٣/٢١٨ .

٢٢ ـ م . ن : ٣/٢٢٠ ـ ٢٢١ .

٢٣ ـ الطبري : ٩/٢١٤ .

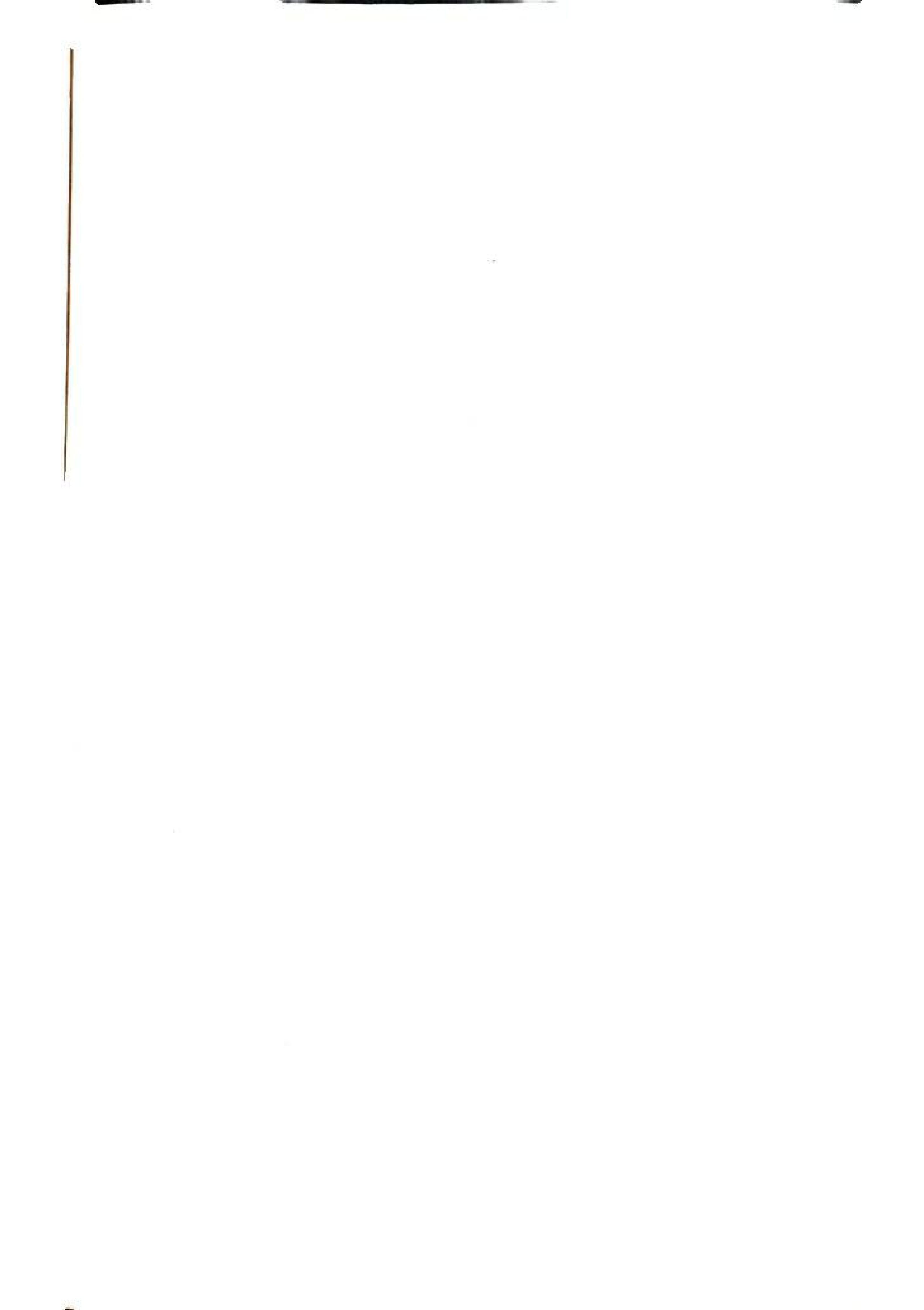
٢٤ ـ اليعقوبي : ٣/٢٢٤ .

٢٥ ـ م . ن : ٣/٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

٢٦ - الطبري : ٩/٢١٥ .
٢٧ - م . ن : ٩/٢٠٣ .
٢٨ - م . ن : ٩/٢١٨ .
٢٩ - مروج الذهب : ٤/٤ .
٣٠ - م . ن : ٤/٣٩ .
٣١ - م . ن : ٤/٤٠ .
٣٢ - مختصر التاريخ : ١٤٦ .

الفصل الرابع

الاضطرابات الداخليـة



١ ـ تمرد محمد بن البعيث :

كان محمد بن البعيث من المتعاونين مع الحركة البابكية الخرمية في أذربيجان منذ عهد الخليفة المأمون ، وتعاون مع اصبهذ « مرند » عصمة الكردي ، وهو أحد الأمراء البابكيين ، ولما شعر محمد بن البعيث بتجهيز الخليفة المعتصم قواته العسكرية لقمع البابكية ورصده الأموال والمعدات وغيرها ، أرسل رسالة الى الخليفة يخبره فيها بأنه من المؤيدين للخلافة ، وأنه على استعداد للتعاون في القاء القبض على عصمة الكردي المذكور . . وقد وافق الخليفة على العرض الذي تقدم به ابن البعيث ، الذي استطاع بدهائه أن يلقي القبض على الأمير المذكور في قلعة شاهي[1] ، وبذلك خلا له الجو فسيطر على « مرند » .

وفي عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م اختلف ابن البعيث مع الوالي على اذربيجان حمدويه السعدي ، واستطاع الوالي ارساله الى سامراء مخفوراً ، لكن الخليفة المتوكل أطلق سراحه بكفالة بعض القواد العسكريين على أن يبقى في سامراء ولايعود الى أذربيجان ، لكنه خالف هذا الشرط وهرب الى أذربيجان ، وفي « مرند » جمع اليه الصعاليك[2] ، وقام بترميم السور ، وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية ؛ من ربيعة وغيرهم ، فصار في نحو الفين ومائتي رجل ، وجمع آلات الحصار ، واستفاد من عين ماء في المدينة ، فكانتا خير عون له على استمرار الاعتصام[3] .

ان سرعة تطور الأحداث في « مرند » جعلت الخليفة المتوكل يعيد تعيين السعدي والياً على الاقليم بدلاً من الوالي محمد بن حاتم ، فقام حمدويه بتعبئة عشرة آلاف مقاتل فأحكم الحصار على « مرند » الا انه فشل في اقتحامها ، فأرسل المتوكل قائدين آخرين فحاصرا المدينة

مجدداً ، فطاول الجميع القتال مع ابن البعيث ، ثم جاءت تعزيزات أخرىٰ أرسلها الخليفة بقيادة بغا الشرابي قوامها أربعة آلاف مقاتل ومعه عيسى الشيباني ، وقد استطاع الأخير اقناع العرب ، من ربيعة ، الملتحقين بابن البعيث بتسليم أنفسهم ، والتخلي عن ابن البعيث ، عند ذلك دخل الجيش العباسي « مرند » واستولىٰ عليها ، الا ان ابن البعيث استطاع الهرب ، لكن سرعان ماألقي القبض عليه وكذلك بقية أولاده وأصحابه[1] » أرسل محمد بن البعيث الىٰ سامراء ومعه بقية الأسرىٰ ، ولكنه توفي في السجن بعد ذلك ، أما أولاده الثلاثة فإنهم جعلوا في عداد احدىٰ فرق الجيش الذي يشرف عليها الوزير[٥] .

٢ ـ الاضطرابات في ارمينية :

لم تتمتع أرمينية بالاستقرار منذ عهد الرشيد ، بسبب العصبية القبلية بين سكانها العرب ، أو تمرد سكانها المحليين ضد الخلافة ، باستثناء اوقات قليلة نعمت فيها بالاستقرار ، بسبب وجود ولاة أقوياء ، استطاعوا فرض الأمن والاستقرار .

في عام ٢٣٦ هـ / ٨٥٠م توفي الوالي ابي سعيد محمد بن يوسف الطائي ، فجأةً ، في سامراء ، وقبل ان يتسلم عمله رسمياً في ارمينية ، لذلك عين المتوكل ابنه يوسف والياً علىٰ الاقليم[٦] . لكن بعض البطارقة ، وبعض المتنفذين ، استغلوا الفرصة ، فأعلنوا التمرد ضد الخلافة العباسية ، وفي رواية ان بطريق البطارقة بقراط بن آشوط كان يرغب في ان يحكم الاقليم بدلاً من تعيين والٍ جديد .

أرسل الوالي الجديد يوسف الطائي رسائل عديدة الىٰ المتمردين ، يطلب فيها اعلان الطاعة ، فوافق بعضهم ، وفيهم بطريق

البطارقة الذي سلم نفسه ، وأرسله الوالي الىٰ الخليفة في سامراء[٨] .

لم تهدأ الأمور في الاقليم ، حيث تزعم التمرد ابن أخي بطريق البطارقة ، الذي استطاع محاصرة الوالي ومن ثم قتله مع بعض اتباعه ، أما البعض الآخر فأمروه بخلع ثيابه والخروج عارياً ، وكانت الأرض مغطاة بالثلوج ، فمات أكثرهم من شدة البرد .

أرسل الخليفة المتوكل القائد بغا الشرابي مع قوات عسكرية عن طريق اقليم الجزيرة ، وقد استطاع فرض الأمن علىٰ منطقة أرزن التي كان يسيطر عليها موسىٰ بن زرارة وولده ، وأرسله الىٰ الخليفة المتوكل في سامراء . ثم زحف نحو المتمردين الذين قتلوا الوالي يوسف ، فقتل منهم مجموعة كبيرة ، وهرب الباقون[٩] .

وبعد شهر تحرك القائد بغا نحو تفليس ، وكان أحد موالي بني أمية اسحاق بن اسماعيل مسيطراً عليها ، فحاصر بغا تفليس من مناطق متعددة ، فكان زيرك التركي يحاصرها من الغرب ، وسنباط بن آشوط أبو العباس الواثي النصراني من الجهة الأخرىٰ وارسل بغا النفاطين الىٰ المدينة فأحرقوها ، واحترق معها اعداد كبيرة من سكانها ، فاضطر اسحاق بن اسماعيل الىٰ الظهور وتسليم نفسه ، فأخذ أسيراً ثم اعدم بعد ذلك[١٠] . وقد نجح بغا بعد ذلك في فرض الأمن والاستقرار في ارمينية[١١] .

لم يقف سكان ارمينية « الصنارية » متفرجين ، بل تحركوا من جديد ، فحجز بغا رؤساء المناطق رهائنَ ، وهي وسيلة لفرض الأمن في الاقليم ، الا ان بعضهم استطاع الهرب، والالتحاق بامبراطور الروم وبعضهم الىٰ ملك الخزر والبعض الآخر الى ملك الصقالبة ، وطلبوا منهم انجادهم لطرد العرب من الاقليم ، فتدارك الخليفة الأمر فعين

القائد العربي محمد بن خالد بن يزيد الشيباني والياً على ارمينية ، وقد استطاع - بفضل حنكته وسياسته المرنة والبارعة - فرض الأمن والاستقرار في الاقليم[١٢] .

اضطرابات حمص :

كان السبب وراء حصول اضطرابات حمص ان الوالي قتل أحد رؤسائها ، فقام بعض الأهالي بقتل بعض أصحاب الوالي ، وطردوا الوالي من المدينة مع بقية جنده ، مما اضطر الخليفة المتوكل الى ارسال القائدين عتاب بن عتاب ومحمد بن عبدويه الأنباري ، فرضوا بالأخير والياً ، الا انه استعمل الشدة معهم[١٣] ، وأخذ منهم رهائن وأرسلهم الى سامراء ، ثم أعيدوا الى حمص ، فضربهم بالسياط ، وتوفي بعضهم من أثر الضرب ، وقام الوالي الجديد أيضاً بتتبع بقية رؤسائهم واعتقلهم[١٤] . ويظهر أن هذه الاجراءات كانت بأمر من الخليفة المتوكل ، وقد كان نصارى حمص من المؤيدين للثائرين مما زاد في اجراءات العنف التي انتهجتها حامية دمشق التي ارسلت الى حمص على عجل بأمر من الخليفة ، وكانت النتيجة ان تم طرد النصارى من حمص .

وقد كرم الخليفة الوالي وقواده أحسن تكريم[١٥] .

الهوامــش

١ - انظر الى تفصيلات اخرى في اليعقوبي ٣/٢٠٧ ، الطبري : ٩/١٢ .

٢ - اليعقوبي : ٣/٢١٩ .

٣ - الطبري : ٩/١٦٥ .

٤ - م . ن : ٩/١٦٥ - ١٦٦ ، ولاحظ الاختلاف مع رواية اليعقوبي ٣/٢١٩ .

٥ - م . ن : ٩/١٧٠ - ١٧١ .

٦ - م . ن : ٩/١٨٥ - ١٨٦ ، ولاحظ اليعقوبي : ٣/٢٢٢ .

٧ - م . ن : ٩/١٨٧ .

٨ - م . ن : ٩/١٨٧ ، اليعقوبي : ٣/٢٢٢ .

٩ - م . ن : ٩/١٨٨ .

١٠ - اليعقوبي : ٣/٢٢٢ ، الطبري : ٩/١٩٢ - ١٩٣ .

١١ - راجع الطبري : ٩/١٩٣ .

١٢ - اليعقوبي : ٣/٢٢٢ .

١٣ - الطبري : ٩/١٩٧ .

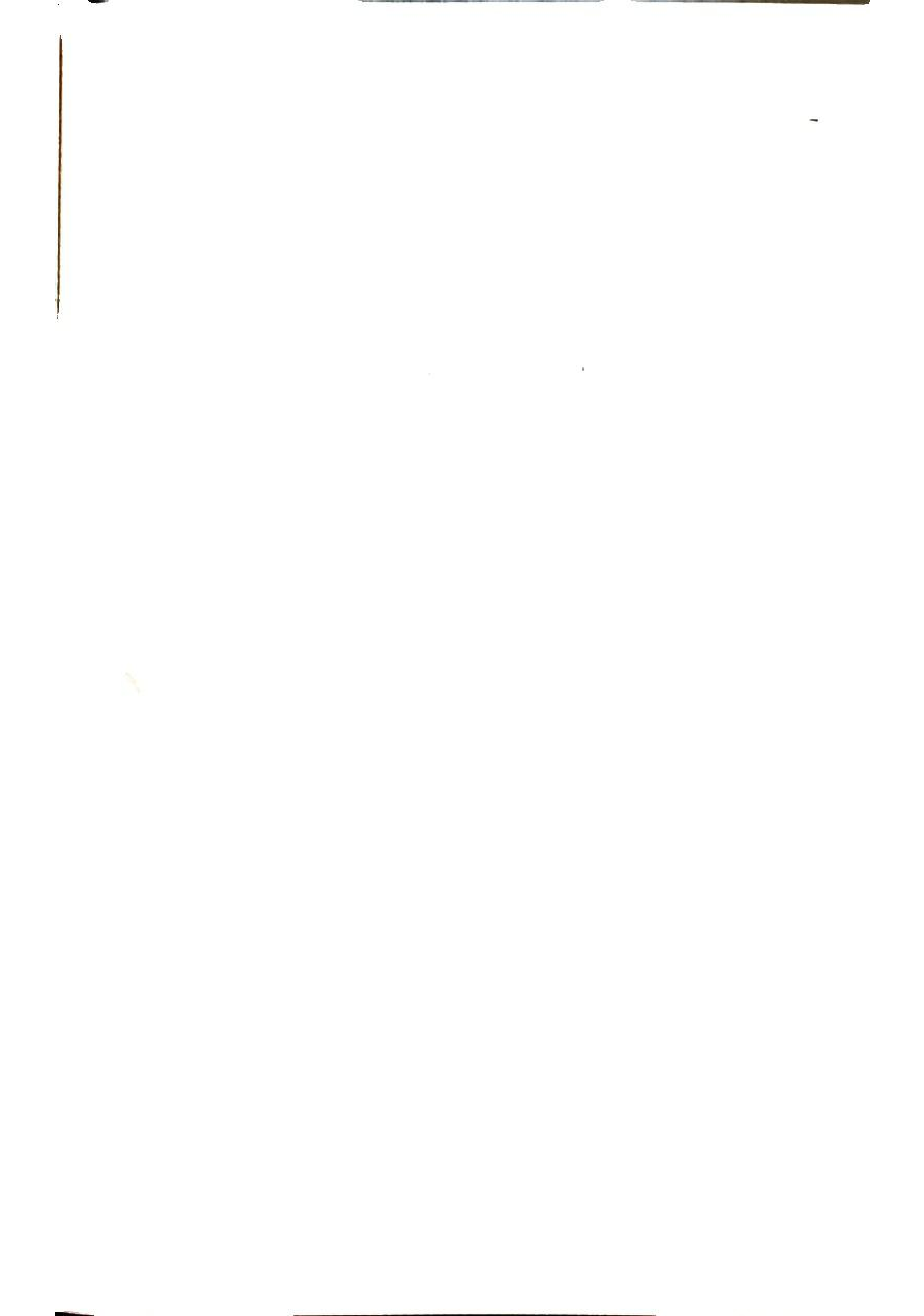
١٤ - اليعقوبي : ٣/٢٢٣ .

١٥ - الطبري : ٩/١٩٩ - ٢٠٠ .



الفصل الخامس

العلاقات الخارجية



العلاقات مع البجــة :

كانت علاقات الدول العربية مع أهالي النوبة ـ جنوب مصر ـ وأهالي البجة ، وهم سكان شرقي بلاد النوبة ، تنظمها اتفاقية منذ زمن الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (رض)[1] .

وفي عهد الخليفة المأمون قام البجة بمهاجمة حدود أسوان[2] ، فاضطر الوالي على الشام ومصر أبو اسحاق بن الرشيد (المعتصم فيما بعد) الى تجريد حملة لاخضاعهم ، وبعد معارك عديدة ، عقدت اتفاقية جديدة مع رئيسهم كنون بن عبدالعزيز ، اعترف بموجبها بالخلافة العباسية ، وان يؤدي (البقط) وهو الجزية ، الى غير ذلك من البنود[3] .

وفي عهد الخليفة المتوكل ، امتنع البجة عن دفع البقط (الجزية) سنين عديدة ، فضلاً عن اعتداءاتهم المستمرة على عمال المعادن (سبك الذهب) من العرب والمسلمين ، وأخيراً سبوا نساءهم وذراريهم[4] ، كما هاجموا مدينة « أنبو » ـ كوم أمبو ـ وسبوا من فيها ، وقتلوا ماشاء لهم القتل[5] . كما ان البجة اعترضوا على استيطان العرب بالقرب من بلادهم ، ذلك ان ألوفاً من العرب هاجرت من اليمامة الى أرض المعادن « وتكامل بالعلاقي (وادي تصفية الذهب) قبائل ربيعة ومضر ، وهم جميع أهل اليمامة »[6] .

اضطر والي أسوان الى دخول أرض البجة عن طريق النيل على رأس قوة مسلمة ، بعد ان قام البجة بتخريب مدينة أنبو (كوم أمبو) ، واستطاع الوالي الحاق الهزيمة بالبجة ، واعادة الأسرى العرب والمسلمين . الا ان القلاقل استمرت بسبب الوافدين الجدد من عرب اليمامة .

لم يستطع الخليفة المتوكل ان يتخذ الاجراءات السريعة لمواجهة اخلال البجة بالاتفاقية ، بسبب وعورة الطرق ، « وان الوصول الىٰ بـلادهم صعب لايمكن ان يسلك اليهم الجيـوش ، لأنها مفـاوز وصحارىٰ وبين أرض الاسلام وبينها مسيرة شهر ، في أرض قفر وجبال وعرة ، لاماء فيها ولازرع ولامعقل ولاحصن »[٧] .

لعل الرسالة التي ارسلها بعض العرب الىٰ الخليفة المتوكل كانت حافزاً للاعداد لشن حملة كبيرة علىٰ البجة ، فقد ذكروا له ان أحد أهالي البجة شتم الرسول (ﷺ) ، ثم أنهم أخلوا بالتزاماتهم المالية حسب نص الاتفاقية وخصوصاً الضريبة المفروضة علىٰ استخراج المعـادن ، لذلك عين الخليفة محمد بن عبدالله الأشعري قائداً للقوات العسكرية ومعه ألف مقاتل ، وانضم اليه الكثير من المتطوعة وكذلك من العاملين في المناجم من العرب ، « فكانت عدة من معه نحواً من عشرين ألف رجل بين فارس وراجل »[٨] ، فتقـدم بهذه القـوة وتوغـل في أراضي البجة ، وفي الوقت نفسه أمر بحمل الميرة والتموين بالمراكب عن طريق البحر ، وعندما علم علي بابا ـ رئيس البجة ـ بقدوم الجيش العباسي طـاولهم في القتال عسىٰ ـ في اعتقـاده ـ أن يستسلموا بعـد أن تنتهي مؤونتهم ، لكن الميـرة والتمـوين وصلت الىٰ الجيش العبـاسي عن طريق البحر ، كما خطط القائد العباسي ، عند ذلك لم يكن امام علي بابا الا ان يهجم علىٰ الجيش العباسي ، لكن بحيلة بارعة من الجيش العباسي استطاع ان يكسب المعركة ، ذلك أنه رفـع علىٰ الأسنـة في الصباح المبكر كتباً في طوامير محلاة بالذهب ، وجعلهـا بخط جميل ، ونادىٰ : هذه كتب أمير المؤمنين ، فلما شاهدوا ذلك استظرفوه فحدث الخلل في صفوفهم ، وتضاعف الخلل بعد ضرب الطبول الزنجية ،

فهربت ابلهم ، عند ذلك حمل الجيش العباسي عليهم فقتل بعضاً منهم وأسر البعض[٩] ، الا ان الطبري في روايته يجعل هزيمتهم بسبب تعليق الأجراس في أعناق الخيل « فنفرت ابلهم لأصوات الأجراس واشتد رعبها ، فحملتهم علىٰ الجبال والأودية ، فمزقتهم كل ممزق » ، ثم طلب علي بابا الامان علىٰ ان يرد الىٰ مملكته وبلاده ، أي الاعتراف به حاكماً علىٰ بلاد البجة ، فأُعطي الأمان بشرط أن يدفع الجزية عن السنوات التي امتنع فيها عن الدفع ، ثم ارسل الىٰ سامراء لمقابلة الخليفة المتوكل وعين بدله ابنه « لعيس »[١٠] ، وفي رواية اخرىٰ ان علي بابا استقر علىٰ ربوة وحلف الا يزول أو تنقلع الربوة ، فأخذ أسيراً . وقد بيعت الغنائم ، فكانت خمسين أوقية تبراً ، وكان من جملة الغنائم تاج الملك ومتاعه[١١] .

وصل ملك البجة علي بابا الىٰ سامراء في أواخر عام ٢٤١ هـ / نيسان ـ مايس ٨٥٦م ، « فكسا علي بابا هذا دراعة ديباج ، وعمامة سوداء ، وكسا جمله رحلاً مدبجاً وجلال ديباج ، ووقف بباب العامة مع قوم من البجة نحو من سبعين غلاماً على الابل بالرحال ومعهم الحراب في رؤوس حرابهم رؤوس القوم الذين قتلوا من عسكرهم »[١٢] ويضيف ابن حوقل أن ملك النوبة « يركي » وصل اسوان معلناً الطاعة للقائد العباسي ويبدو أنه كان متحالفاً مع علي بابا ، فأخذهما محمد الأشعري الىٰ سامراء ، ويروي ابن حوقل أيضاً أن الخليفة المتوكل أمر فنودي علىٰ الملكين للبيع في السوق ، فأُوقفا عند باب العامة مع قوم من البجة نحو من سبعين غلاماً علىٰ الابل بالرحال ، فبلغ ملك البجة سبعة دنانير وملك النوبة تسعة دنانير ، فأجرىٰ الخليفة لكل منهما راتباً يومياً بمقدار ثمنه ، وخلع عليهما ، وصولح الاثنان علىٰ أداء الجزية ،

ثم أعيدا الىٰ دار ملكهما[١٣] ، وبذلك جدد العمل بالاتفاقيات القديمة .

العلاقات مع الروم البيزنطيين :

يعد انتصار الخليفة المعتصم في عمورية ، نقطة التحول في علاقات الدولتين ، العباسية والبيزنطية ، حيث اكتفىٰ الطرفان بعده ، بعقد هدنة غير رسمية ، فتوقفت الأعمال الحربية سنوات عديدة ، وربما عادت المناوشات المحدودة علىٰ الحدود ولم تتجاوزها ، فضلاً عن اتمام عقد اتفاقية بين الطرفين لتبادل الأسرىٰ (الفداء) زمن الخليفة الواثق[١٤] .

وبعد مرور خمسة أعوام من حكم الخليفة المتوكل ، أي في عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١م ، بدأت العمليات الحربية علىٰ الحدود (الصائفة) علىٰ يد القائد البارز علي بن يحيىٰ الأرمني[١٥] ، الا ان المصادر لاتوضح لنا نتائج هذا الهجوم ، على ان رد الفعل البيزنطي لم يكن علىٰ الجبهة البرية ، وانما كان عن طريق البحر ، فهاجموا في العام التالي دمياط في مصر ، يذكر الطبري بأنهم ارسلوا (٣٠٠) مركب علىٰ كل (١٠٠) مركب قائد ، فهاجم أحد القواد دمياط عن طريق البحيرة ، واستطاع تخريب بعض السفن الموجودة فيها ، لكن القائد العباسي عنبسة بن اسحاق الضبي اخلىٰ دمياط من أغلب سكانها ، قبل الهجوم ، فأحرق الروم المدينة ، الدور والبساتين ، ومقلع السفن ، والمسجد الجامع ، وحتىٰ الكنائس لم تسلم من الحرق ، كما استولوا علىٰ السلاح والمؤن الموجودة في المدينة ، وقتلوا مجموعة من الرجال وأخذوا معهم ستمائة أسيرة بين مسلمة وقبطية[١٦] .

لم يكن رد الفعل العربي بما يوازي هذا الهجوم ونتائجه ، سوى

هجوم شنه القائد علي بن يحيىٰ الأرمني في العام التالي ، ويظهر أنه لم يكن بالمستوى المطلوب[١٧] .

عاد الروم فهاجموا مدينة عين زربة ، فأسروا قبائل الـزط مع نسائهم وأطفالهم ودوابهم[١٨] .

ان هذه المناوشات الحدودية لم تثمر عن تغيير كبير في وضع الحدود بين الطرفين وفجأة اكتفىٰ الطرفان بتبادل الأسرىٰ (الفداء) في العام نفسه ، وقد بادر الامبراطور البيزنطي بإرسـال هدايـاه الىٰ الخليفة ، وكانت يسيرة ، فبعث اليه الخليفة أضعافها[١٩] . ويشير الطبري الىٰ ان أم الامبراطور « تذورة » ارسلت من يمثلها (وكان الامبراطور صغيراً في وقتها) واسمه جورجس بن قريانس الىٰ سامراء للتباحث حول تبادل الأسرىٰ (الفداء) وكان عدد المسلمين في ايدي الروم ـ حسب رواية الطبري ـ عشرين ألفاً ، ويظهر ان هذا الرقم مبالغ فيه ، ونظرة الىٰ عدد من الأسرىٰ المسلمين الذين بودل بهم بعد ذلك تؤيد مـانذهب اليه[٢٠] . ومهما يكن من أمر فإن ممثل الخليفة نصر بن الأزهر الطائي وصل الىٰ مقر الامبراطور البيزنطي للتباحث حول تبـادل الأسرىٰ ، فمكث هناك مدة ، في الوقت الذي قام فيه شنيف الخادم بالتباحث مع ممثل الامبراطور جورجس بن قريانس ، وتكللت المباحثات بـالنجاح بعـد ان تم التفـاهم بعقـد هـدنـة من ٥ / رجب / ٢٤٨ هـ الىٰ ٢٣ / شوال من العام نفسه / ١٩ تشرين الثاني / ٨٥٥ هـ الىٰ ٦ آذار ٨٥٦ م ، ان الهدف من هذه الهدنة هو جمع الأسرىٰ في كل من الدولتين وتهيئتهم للتبادل ، واتفقوا علىٰ أن تكون عملية التبادل قبل انتهاء الهدنة وذلك يوم الفطر في ١ شوال ٢٤١ هـ المصادف ١٢ شباط ٨٥٦ م ، الا ان التبـادل لم يتم الا في ١٢ شوال / ٢٤ شبـاط علىٰ نهر الـلامس ،

بحضـور والي الثغور الشـامية عـلي بن يحيىٰ الأرمني ، ولأهمية هـذه الاتفاقية حضرها قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد الهاشمي ، ومعه الأموال لمعونة الأسرىٰ ورعـايتهم وشارك أهـالي بغداد أيضـاً في هذه العملية[٢١] . كان العدد (٧٨٥) رجلاً و (١٢٥) امرأة .

عاود العباسيون الهجوم المعتاد بقيادة علي بن يحيىٰ الأرمني ، ورد الروم بهجوم علىٰ شمشاط حتىٰ اقتربوا من مدينة آمد ، ثم اتجهوا نحو الثغور الجزرية ، واستطاعوا نهب عدة قرىٰ ، وأسروا حـوالي عشرة آلاف أسير ، ثم انسحبوا نحو بلادهم ، فخرجت قوة عباسية في أثرهم بقيـادة عمـر بن عبـدالله الاقـطع ومعـه قـوم من المتـطوعـين ، فلم يدركوهم[٢٢] . ويشير فازيليف الىٰ ان سبب تجدد الاشتباكات الحدودية يعود الىٰ أزمة داخلية في بيزنطة ، فقد اجتاحها تعصب مـذهبي ضد جماعة البيالقة ، وحاولوا اجبارهم علىٰ تبني المـذهب الارثوذوكسي ، فأعدموا منهم الآلاف فاضطروا الىٰ الهرب الى حدود الدولة العباسية ، لذلك كان هجوم الروم علىٰ القرىٰ التي سكنتها تلك الجماعة ، وكان الأسرىٰ من البيالقة[٢٣] .

ومن دمشق في عام ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م وجه الخليفة بغا التركي عـلىٰ رأس قوة عسكـريـة لغـزو الـروم ، واسـتـطاع الاستيـلاء عـلىٰ « صملة »[٢٤] .

وفي نهاية عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩م ارسل نبوفيل امبراطور الروم سفيره الشيخ اطروبينيس الىٰ سامراء ومعه (٧٧) أسيراً من المسلمين علىٰ سبيل الهدية ولتشجيع الخليفة عـلىٰ الدخـول بمفاوضـات لتبادل الأسرىٰ ، فتجاوب الخليفة مع هذه المبادرة ، فكلف سفيـره السابق نصر بن الأزهر الطائي بالسفر الىٰ مقر الامبراطور للتفاوض علىٰ عقد

اتفاقية بهذا الشأن .

سافر نصر الطائي مع سفير الروم الشيخ اطروبيليس ، وبقي أربعة أشهر دون أن يقابله الامبراطور[٢٥] . علىٰ أن الغريب حقاً هو قيام الامبراطور بالهجوم علىٰ سميساط ، فقتل جيشه وسبا نحواً من خمسمائة رجل[٢٦] . وفي صيف العام نفسه هاجم القائد علي بن يحيىٰ الأرمني حصن لؤلؤة ، وكان أهالي الحصن قد تمردوا علىٰ الامبراطور ، وقد ألقي القبض علىٰ القائد ، ويسميه الطبري « نعثيط » (وهو منصب عسكري) ، وأرسل الىٰ الخليفة في سامراء ، فاهتم به الفتح بن خاقان صديق الخليفة ، حيث عرض عليه الاسلام ، فأبىٰ ، وقد أرسل الامبراطور رسالة الىٰ الخليفة طالباً اطلاق سراحه مقابل الف أسير مسلم[٢٧] ، ويظهر أن هذا الطلب قوبل بالرفض .

وفي صيف عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م اهتم الخليفة المتوكل بالجبهة اهتماماً كبيراً ، فأرسل قوات عديدة بقيادة قواد أكفاء كعمرو بن عبدالله الاقطع ، وعلي بن يحيىٰ الأرمني ، وبلكاجور ، وقرباص البيالقة ، وهو من الذين هربوا من الروم لاختلافه معهم في المذهب[٢٨] ، فشنوا حملات عديدة ، كانت حصيلتها سبعة آلاف أسير عاد بهم عمر الأقطع ، وخمسة آلاف قامت قوات علي بن يحيىٰ الأرمني بأسرهم مع بعض البهائم ، أما قرباص البيالقة فانه استطاع أسر خمسة آلاف رجل ، كما تحرك أسطول عربي بقيادة الفضل بن قارن وهاجم ميناء انطاكية[٢٩] ، ويظهر أن الضغط علىٰ الجبهة ، وهزائم الروم اجبرت الامبراطور علىٰ مقابلة سفير الخليفة نصر الطائي بعد أن امتنع عن مقابلته أربعة أشهر[٣٠] .

لقد وصف لنا السفير الطائي ، مراسيم استقباله في مقر

الامبراطور وصفاً جميلاً ، ذاكراً كيف رفض نزع سلاحه وقلنسوته ، وماكان يحمله من هدايا الىٰ الامبراطور ، وشرح كيفية اجراء المباحثات عن طريق المترجمين الثلاثة ، وقد تكللت المباحثات بالنجاح في صفر أو جمادىٰ الأولىٰ من عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠م ، وتم تبادل الأسرىٰ بين الطرفين[٣١] .

أما السواحل ، فقد اهتم بها الخليفة اهتماماً كبيراً ، ففي نهاية حكمه أمر « بترتيب المراكب بعكا ، وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة »[٣٢] ، ويبدو ان ذلك له علاقة بهجوم الروم علىٰ دمياط ، فاضطر الىٰ اتخاذ هذه الاحتياطات .

الهوامـــش

١ - البلاذري : فتوح البلدان ١ / ٢٧٩ - ٢٨٠ .

٢ - م . ن : ٢٨١/١ .

٣ - المقريزي : المواعظ والاعتبار ١ /١٩٥ - ١٩٦ ، حيث يذكر نص الاتفاقية .

٤ - الطبري : ٢٠٣/٩ - ٢٠٤ .

٥ - ابن حوقل : صورة الأرض ٥٧ ، الطبري : ٢٠٤/٩ .

٦ - ابن حوقل : ٥٨ .

٧ - الطبري : ٢٠٤/٩ .

٨ - م . ن : ٢٠٥/٩ .

٩ - ابن حوقل : ٥٨ .

١٠ - الطبري : ٢٠٥/٩ .

١١ - ابن حوقل : ٥٨ ، ولاحظ البلاذري : ٢٨٢/١ حيث يذكر أن علي بابا قتل وقام بعده ابن أخيه .

١٢ - الطبري : ٢٠٦/٩ .

١٣ - ابن حوقل : ٥٨ .

١٤ - اليعقوبي : ٢١٥/٣ ، الطبري : ١٤١/٩ - ١٤٢ .

١٥ - الطبري : ١٩١/٩ .

١٦ - م . ن : ١٩٣/٩ - ١٩٥ .

١٧ - م . ن : ١٩٧/٩ .

١٨ - سبق أن نقلهم المعتصم من البطائح في العراق الى عين زربة ، الطبري : ٢٠١/٩ .

١٩ - اليعقوبي : ٢٢٣/٣ .

٢٠ - لاحظ الطبري : ٢٠٢/٩ - ٢٠٣ ، في حين يذكر المسعودي بأنهم ألفي رجل ومائتي أو مائة امرأة ، التنبيه والاشراف : ١٩١ .

٢١ - الطبري : ٢٠٢/٩ - ٢٠٣ ، التنبيه والاشراف ١٩١ .

٢٢ - الطبري : ٢٠٧/٩ .

٢٣ - العرب والروم : ٢٠١ - ٢٠٣ .

٢٤ - الطبري : ٢١٠/٩ .

٢٥ - م . ن : ٢١٣/٩ .

٢٦ ـ م . ن : ٢١٨/٩ .
٢٧ ـ م . ن : ٢١٨/٩ .
٢٨ ـ م . ن : ٢١٩/٩ .
٢٩ ـ م . ن : ٢١٩/٩ .
٣٠ ـ م . ن : ٢٢٠/٩ .
٣١ ـ راجع التفاصيل في الطبري ٢١٩/٩ ـ ٢٢٠ ، التنبيه والاشراف ١٩٢ .
٣٢ ـ البلاذري : ١٤٠/١ .

الفصل السادس

الازدهار العمراني



تطورت مدينة سامراء تطوراً كبيراً علىٰ عهد الخليفة المتوكل ، ويعد عهده عهد العمران الحقيقي للمدينة ، من حيث توسعها وازدهارها وبناء قصورها ، ذلك ان الخليفة المتوكل كان محباً للبناء والعمارة ، سخياً بالمال ، ان حبه للبناء والعمارة جعله يتفقد العمال بنفسه ، فمن رآه متميزاً بالعمل وجاداً بالبناء منحه الجوائز[1] . حتىٰ ان الناس اندفعوا في تشييد الدور والقصور ، فاتسعت سامراء اكثر من اتساع بغداد[2] ، فأدىٰ ذلك الىٰ ارتفاع ثمن الأرض ارتفاعاً عالياً ، يقول اليعقوبي : « وبلغ الجريب من الأرض مالاً كبيراً »[3] .

لقد امتد البناء الىٰ كرخ سامراء الواقع علىٰ بعد عشرة أميال شمال المدينة ، وكذلك امتد الىٰ « الدور » الواقعة شمال المدينة كذلك ، اما في الجنوب فإن البناء امتد الىٰ « المطيرة » ، بحيث أصبح طول المدينة يمتد مايقرب من (٣٤) كيلو متراً[4] . هذا اذا تذكرنا ان الخليفة وزع الأراضي علىٰ الناس مجاناً[6] .

قام المتوكل بتشييد عدد من القصور فضلاً عن توسيع مجموعة أخرىٰ كانت مشيدة في عهد أبيه المعتصم وأخيه الواثق ، وقد تحملت الميزانية أموالاً كثيرة وبذلت جهود كبيرة[7] ، علىٰ أن المؤرخين لم يتفقوا علىٰ المبالغ التي أُنفقت علىٰ بناء القصور الجديدة وعلىٰ تكاليف التوسيعات للمشيد منها ، ويحتمل جداً ان الأرقام التي أوردوها في رواياتهم قد بولغ فيها[8] .

اختار المتوكل في أول عهده السكن في القصر الهاروني ، وفضله علىٰ جميع قصور والده المعتصم ، الا أنه بنىٰ قصوراً جديدة ؛ منها قصر « البركة »[9] ، وقصر « الوحيد »[10] ، وقصر « البهو »[11] ، ومن القصور؛ قصر « القلائد » انفق عليه خمسين ألف دينار ، وكلفة الأبنية

الملحقة به كانت مائة ألف دينار[١٢] . ومن قصوره « القصر »[١٣] ، و « الجوسق »[١٤] ، وحدد ياقوت مكانه بأنه كان في ميدان الصخر ، أما كلفته فكانت خمسمائة ألف درهم[١٥] .

ويذكر ياقوت ثلاثة قصور أخرىٰ وهي « التل »[١٦] و « الغريب » و « المليح »[١٧] ، ويشير اليعقوبي الىٰ أن للمتوكل قصراً باسم « الشاه »[١٨] ، أما ياقوت فيضيف قصراً آخر باسم « العروس » ، ويقول عن هذين القصرين : « الشاه والعروس قصران عظيمان بناحية سامراء أُنفق علىٰ عمارة الشاه عشرون ألف ألف درهم ، وعلىٰ العروس ثلاثون ألف ألف درهم »[١٩] . أما قصر « البديع » ، فقد أشار اليه كل من اليعقوبي[٢٠] والشابشتي[٢١] ، ويوضح ياقوت انه بناء عظيم بناه المتوكل[٢٢] ، ويوجد قصر آخر باسم « المختار » حيث أشار اليه الشابشتي[٢٣] ، وذكره ياقوت أيضاً[٢٤] ، وقال عنه في مكان آخر : « وكانت فيه صور عجيبة من جملتها صورة بيعة فيها رهبان »[٢٥] ، وقد ذكر الطبري أن قصري (البديع والمختار) هدّما زمن الخليفة نفسه ونقل ساجهما الىٰ المدينة الجديدة في الماحوزة[٢٦] . اما قصر « الشبداز » فإنه قصر عظيم من أبنية المتوكل »[٢٧] .

أما قصر « البرج » فقد أشاد به الشابشتي وذكر ماكان عليه من العظمة فقال : « وكان البرج من أحسن أبنيته ، فجعل فيه صوراً عظاماً من الذهب والفضة ، وبركة عظيمة جعل فرشها ظاهرها ، وباطنها صفائح الفضة والذهب ، وجعل عليها شجرة ذهب فيها كل طائر يصوت ويصفر مكللة بالجوهر . . وعمل له سرير من الذهب كبير عليه صورتا سبُعَيْن عظيمين ، ودرج عليها صور السباع والنسور . . وجعل حيطان القصر من داخل وخارج ملبسة بالفسيفساء والرخام

المذهب »[٢٨] .

وبنى المتوكل قصراً آخر وسمي « الغرد » على نهر دجلة[٢٩] ، وبلغت النفقة عليه مليون درهم[٣٠] ، وقد أشار الشابشتي الى قصر « الصبيح »[٣١] وسماه ياقوت « الصبح »[٣٢] . وقد وصف الشاعر البحتري هذا القصر في قصيدة يمدح بها المتوكل وذكر أن هذا القصر بناه الخليفة في أحسن الأوقات ، واتخذه مسكناً وداراً للأنس ، وأشار أيضاً الى ان لهذا القصر بركة حسناء تستمد مياهها من جدول عليه دواليب يديرها النعام ، وظن البحتري ـ لدهشته ـ ان هذا القصر لايمكن ادراكه الا بالخيال ، يقول البحتري :

قد صفا جانب الهواء ، ولذت
رقة الماء في فراج المدام
واستتم الصبيح في خير وقت
فهو مغنى أنس ، ودار مقام[٣٣]

وفي منطقة القادسية ، على بعد ستة كيلومترات جنوبي مدينة سامراء الحالية ، بنى المتوكل قصراً سماه « بلكوارا » ، واهداه لابنه المعتز ، « وكان من أحسن أبنية المتوكل وأجلّها ، وبلغت النفقة عليه عشرين ألف ألف درهم »[٣٤] ، وفي هذا القصر أقام الخليفة المتوكل حفلة « ختان » ابنه المعتز ، وانفق على الحفلة أموالاً كثيرة ، بلغت (٨٦) مليون درهم[٣٥] . ان قصر بلكوارا من القصور العظيمة ، يتكون من مساحة ذات جدران مستطيلة ، مدعمة بأبراج ، له ثلاثة أبواب ، أما القصر الداخلي فله مدخل واحد كبير ، وفي قسمه الأوسط بوابة ضخمة وقاعات شرف ، ثم قاعة العرش ، وفيه أيضاً ثلاثة

رحبات (أحواش) ، وتسع قاعات منسقة ، ودلت التنقيبات الحديثة علىٰ « أن قصر بلكوارا يعد عملاً معمارياً من الطراز الأول ، لا لسعة مساحته وانما يضاف الىٰ هذه مافيه من مظاهر معمارية غنية من حيث انسجام أقسامه وتخطيط قاعاته ورحباته وتباين أشكال مداخله ، والزخرفة بالموزاييك ومادة البناء والمهارة في اختيار الموقع »[٣٦] .

لقد ابتكر المتوكل طرازاً من البناء لم يكن الناس يعرفونه يسمى « الحيري » وقد أشار المسعودي الى ذلك بقوله : « وأحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري والكمين والأروقة . . واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله »[٣٧] ، يتكون هذا القصر من مساحة واسعة من الأرض ، وأمامه بهو مستطيل علىٰ شكل دكة ، يشرف علىٰ بركة واسعة مربعة ، وخلفه مساحة واسعة مستطيلة مسورة ، وفي وسطها مصطبة صناعية[٣٨] ، وكانت كلفة هذا البناء أربعة ملايين درهم[٣٩] ، ويظهر من وصف المسعودي لهذا البناء انه طراز عربي ، حاول الخليفة المتوكل ان يحاكي فيه طرازاً لبناء لأحد ملوك الحيرة ، ولذلك سمي بالحيري[٤٠] .

ويبدو ان الخليفة المتوكل لم يبتكر طرازاً من البناء فحسب ، وانما ابتكر ثياباً سميت بـ (ثياب الملحمة) ، يقول المسعودي : « واظهر ـ المتوكل ـ لباس ثياب الملحمة وفضل ذلك علىٰ سائر الثياب ، واتبعه من في داره علىٰ لبس ذلك ، وشمل الناس لبسه ، وبالغوا في ثمنه اهتماماً بعمله ، واصطنع الجيد منها ، لمبالغة الناس فيها »[٤١] .

ومن الأبنية التي أولاها الخليفة المتوكل اهتماماً خاصاً ، المسجد الجامع ، ومئذنته الشهيرة ، ذلك ان المتوكل وجد المسجد الجامع الذي بناه والده المعتصم قد ضاق بالناس لذلك هدّمه ، وبنىٰ مسجداً جامعاً

جديداً يقع في بداية الحير ، في مكان واسع وبعيد عن الأسواق والمنازل ، وجعل فيه فوارة ماء (نافورة) لاينقطع ماؤها ، وهي قطعة من الحجر كبيرة كانت تعرف بكأس فرعون[٤٢] ، تحتوي علىٰ حوض حجري من قطعة واحدة محيط دائرته (٢٣) ذراعاً وارتفاعه (٧) أذرع ، وسمكه نصف ذراع[٤٣] . كما جعل المتوكل الوصول الىٰ المسجد الجامع من ثلاثة طرق واسعة[٤٤] . لقد كان المسجد مستطيل الشكل ، يبلغ طوله (٢٤٠) متراً وعرضه (١٥٦) متراً ، فتكون مساحته الكلية (٣٨,٠٠٠) متر مربع تقريباً ، « وعلىٰ هذا الأساس فان هذا الجامع يكون أكبر جامع في العالم »[٤٥] ، يبلغ ارتفاع جدران المسجد (١٠) أمتار أو (١٠,٥٠) متر ، وعلىٰ تلك الجدران (٤٤) برجاً من الخارج[٤٦] . والأبراج تقريباً نصف مستديرة ، موزعة الزوايا والجدران ، ودلت التنقيبات الأثرية علىٰ أن هناك أربعة أبراج في زوايا المسجد و (١٢) برجاً في كل من الجدارين الشرقي والغربي ، و(٨) أبراج في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي ، وتقوم هذه الأبراج علىٰ قواعد مستطيلة في صفين أو ثلاثة من الطابوق[٤٧] . ويوجد (١٦) مدخلاً مستطيلاً ممتدة بوساطة دعامات ، وفي الجدار الجنوبي (٣) مداخل والجهة الشمالية (٣) أيضاً ، وعرضها يتراوح بين ٢,٦٠م - ٤,٧٠م . ويتألف المسجد من أربعة أقسام تحيط بالصحن ، ويتألف الحرم الذي هو في النهاية الجنوبية من (٢٤) صفاً من الأعمدة تشكل (٢٥) رواقاً ، وفي القسم العلوي لحائط القبلة يوجد (٢٤) شباكاً وهناك شباكان يقعان فوق البابين الذين يحيطان بالمحراب ، وشباكان آخران يقعان من الجهة الثانية من الجنوب ، فيكون مجموع الشبابيك (٢٨) شباكاً ، أما شكل الشبابيك من الخارج

فهو عبارة عن فتحات مستطيلة ضيقة ، ولكنها أعرض من وجهها الداخلي[٤٨] . والقسم الشمالي كان يناظر الحرم تماماً ، وينقسم الى (٢٥) رواقاً ، والقسمان الآخران هما الأروقة الجانبية غرباً وشرقاً ، ويتألف كل رواق جانبي من (٢٣) رواقاً[٤٩] . وكانت قواعد الأعمدة مربعة ، وبعضها من المرمر مدورة (اسطوانية) وبعضها مثمنة ، ويبلغ طول العمود الاسطواني أكثر من مترين ، وزودت الأعمدة الاسطوانية بأوتاد معدنية ، وملئت الثقوب بالرصاص ، أما مناطق الاتصال فانها كانت محاطة بحلقات معدنية[٥٠] . ويذكر الاثاريون ان اللمسات الأخيرة لهذا الجامع كانت من الخشب الساج النفيس والحجر والكرستال (الزجاج) الرخامي الجيد ذي اللون الأبيض المائل الىٰ الزرقة[٥١] ، أما زخرفة الجامع الداخلية فقد كسيت بالمينا[٥٢] .

وكان للمسجد الجامع « مئذنة » وكانت علىٰ شكل ملوية ، مخروطية الشكل ، يبلغ ارتفاعها (١٢٠) قدماً ، أو (٥٢) متراً ، وفي القمة برج صغير ، بداخله وضع سلم من بضع درجات[٥٣] ويعتقد أن سبب بناء الملوية علىٰ مثل هذا الارتفاع ، لكي يسمع صوت المؤذنين بسهولة ، وحتىٰ يمكن للمنارة أن تُرىٰ من مسافات بعيدة[٥٤] ، فضلاً عن ذلك ، فقد أشار الثعالبي الى ان المتوكل اعتاد تسلق المنارة علىٰ ظهر حمار[٥٥] ، لكي يستمتع بمنظر المدينة الجميلة من قمتها[٥٦] . ولقد بلغت النفقة علىٰ المسجد الجامع خمسة ملايين درهم[٥٧] .

ولابد من الاشارة الى ان الخليفة ، وبسبب الرغبة في ابتعاده عن الجند المرتزقة الأجانب ، أو أنه أراد أن يبني شيئاً يخلد ذكراه ، يؤيد ذلك قوله : « الان علمت اني ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها »[٥٨] ، بعد ان بنىٰ المدينة الجديدة التي تقع علىٰ بعد عشرة

كيلومترات (حوالي ٢٠ كيلومتر ، شمالي المدينة الجديدة) شمالي مدينة سامراء ، وقد اختلف في اسم هذه المدينة ، فمنهم من قال انها « الماحوزة »[٥٩] أو « الجعفرية »[٦٠] ، أو « المتوكلية »[٦١] .

كان البدء في بنائها عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩م ، وقد خططت القاعات والشوارع والساحات بشكل منتظم ومنسق[٦٢] ، وأمر الخليفة أن يحفر « نهر » يتوسط المدينة ، فقام (١٢) ألف عامل بحفر هذا النهر ، ومدّ الشارع الأعظم الذي يتوسط مدينة سامراء الىٰ هذه المدينة ، وكان عرض الشارع (٢٠٠) ذراع ، وجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام يدخل منها الفارس برمحه ، ووزع الأراضي علىٰ أولاده والقواد وسائر الناس ، فشيدت القصور ، وبنيت الدور ، واكتملت المدينة في أقل من سنة ، وأقيمت الأسواق في موضع منعزل ، وجعل في كل مربعة وناحية سوقاً ، ثم انتقل اليها أول محرم سنة ٢٤٧ هـ / ١٧ آذار ٨٦١م ، ونقل اليها الدواوين ، بحيث أثر ذلك علىٰ سامراء تأثيراً سيئاً ، وعندما جلس الخليفة في مجلسه أعطىٰ مكافآت كبيرة للناس ، وقدم المنح لكل الموظفين العسكريين والمدنيين والىٰ كل من أسهم في العمل[٦٣] .

وقد أشار الشاعر البحتري الىٰ محاسن المتوكلية والىٰ لمعان قصورها الشامخة وبرّها الواسع ذي الأزهار والأوراد ، فقال :

أرىٰ المُتَوَكِّلِيَةَ قَدْ تَعالَتْ
مَحاسِنُها ، وأكْمَلَتْ التَمَاما
قُصُورٌ كالكَواكِبِ لامِعَاتٌ
يَكَدْنَ يُضِئْنَ للسّاري الظَّلاما

وَبَـرٌ مـثـل بُـرْدِ الـوَشْ فـيـه
جَـنى الحَـوذان يُنْشَـرُ والخُـزَامَـى
إذا بَـرَزَ الـربـيـعُ لـهُ كَـسَـتْـهُ
غـواديَ المُـزْنِ والـرِّيحُ الـنُّـعـامَـى
غَـرَائِـبُ من فُـنُـونِ الـنَّـبتِ فـيـهـا
جَـنى الـزَّهْـرِ الـفُـرادىٰ والـتَّـوأمـا
تُـضَـاحِكُـهـا الـضّحىٰ طَـوْرا وطـورا
عَـلَيهـا الـغَيـثُ يَنسَجِمُ إنسِجـامـا
وَلَـوْ لَمْ يَـسـتَـهِـلَّ لَهَـا غَـمَـامٌ
بِـرِيِّـقـة لَـكُـنْـتَ لَهـا غَـمـامَـا[٦٤]

وأشار الشاعر نفسه في موضع آخر الىٰ لطافة مناخ المتوكلية ، ورقة نسيمها واتساعها وكثرة مياهها فقال :

يَهْـنِـيـكَ في المُـتَـوَكّـلِيـة أنَّـهـا — حَسُنَ المَصِيفُ بها ، وَطابَ المَرْبَـعُ
فَيْحـاءُ مُشْـرِقَـةٌ يَـرِقُ نَسِيمُـهـا — مِيثٌ تُـدَرِّجُها الـرِّيـاحُ واجْـرَعُ
وَفَسِيحَةُ الأكْنافِ ضَاعَفَ حُسنَها — بَـرُّهَـا مُفْضٍ ، وَبَحْـرٌ مُتْـرَعُ
قَـدْ سُرَّ فِيهَـا الأوْلِيـاءُ ، إذِ التَقَـوْا — بِفِنَاءِ مِنْبَرِهَا الجَدِيدِ ، فَجُمِعُوا[٦٥]

وقد شيد الخليفة في مدينته الجديدة مسجداً جامعاً ، وجعل له « مئذنة » ملوية علىٰ غرار المسجد الجامع في سامراء ، ويبعد (١٥) كيلومتراً تقريباً من القسم الشمالي للمدينة[٦٦] .

وشيد المتوكل قصراً في المدينة الجديدة سمي « قصر الايتاخية » ، وبلغت النفقة عليه عشرة ملايين درهم[٦٧] . أما قصر « الجعفري » ، فهو من أعظم قصور المتوكل ، وبلغت تكاليف بنائه

مليوني دينار[٦٨] ، وكان من الضخامة والفخامة بحيث قال أبو العيناء للخليفة حين سأله عنه : « ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا بدارك »[٦٩] . وقد أشار البحتري ـ شاعر الخليفة الأول ـ الىٰ هذا القصر في عدة مواطن من شعره ، فأشار في البعض منها الىٰ حسن اختياره للموقع ، ولطافة الجو ، وماكان عليه من السعة والشموخ ، حتىٰ عانقت شرفاته قطع السحاب وحتىٰ غض من بنيان كسرىٰ وقيصر ، يقول البحتري من قصيدة[٧٠] :

قَد تمّ حُسنُ الجعفريِّ ، ولَمْ يكُنْ ... لِيَتِمَّ إلاّ بالخَليفَةِ جَعفَرِ

مَلِكٌ تَبوَّأ خَيرَ دارٍ أُنشِئَتْ ... في خَيرِ مَبدىً للأنامِ وَمَحضَرِ

في رأسِ مُشْرِفَةٍ ، حَصَاهَا لُؤلُؤٌ ... وَتُرابُهَا مِسْكٌ ، يُشَابُ بعَنبَرِ

ويقول فيها أيضاً :

أزْرَىٰ علىٰ هِمَمِ المُلوكِ وَغَضَّ من ... بُنيانِ كِسرىٰ في الزّمانِ وَقيصَرِ

عَالٍ علىٰ لَحظِ العُيُونِ ، كأنّما ... يَنظُرْن مِنْهُ الىٰ بَياضِ المُشْتَري

ويقول فيها أيضاً :

مَلأتْ جَوانِبُهُ الفَضَاءَ وعَانَقَتْ ... شُرُفَاتُهُ قِطَعَ السّحَابِ المُمطِرِ

وتَسيرُ دِجْلَةُ تَحتَهُ ، فَفِناؤُهُ ... من لُجّةٍ غَمْرٍ ، وَرَوْضٍ أخْضَرِ

وقد وصف البحتري القصر في مكان آخر بأنه كان بناءً عجيباً ، ومنزلاً أنيساً ، كما أشار الىٰ مايحيط به من رياض وزهور ، والىٰ اختياره دار ملك ومقراً للخلافة ، يقول في قصيدة يمدح بها الخليفة المتوكل[٧١] :

أصْبَحَتْ بهجَةُ النّعيمِ ، وَأمْسَتْ ... بَينَ قَصرِ الصَّبيحِ والجعفَريِ

في البِنَاءِ العجيب والمَنزِلِ الآنـ ... ـسِ والمَنظَرِ الجميلِ البَهيّ

ورياضٍ تَصْبُو النفوسُ إلَيها ... وتُحَيّا بِنَوْرِهِنّ الجَنيّ

دارُ مُلْكٍ مُختَارةٌ لإمَامٍ ... أحْرزَتْ كَفُّهُ تُرَاثَ النّبيّ

وفي هذا القصر اغتيل الخليفة المتوكل[٧٢] . وللمتوكل قصر آخر في مدينته المتوكلية سماه « لؤلؤة » ، لم ير مثله في علوه ، وبلغت تكاليف انشائه خمسة ملايين درهم[٧٣] .

ومما يجب ذكره ان الخليفة اهتم اهتماماً كبيراً بتجميل سامراء ، حيث ألحق بالقصور ماهو ضروري لزيادة جمالها ، وقضاء ساعات لهو فيها ، فأنشأ البرك الفسيحة ، فكانت البركة الحسناء ، مثلاً ، تتكون من منخفض صناعي مربع الشكل ، يبلغ طول كل من اضلاعه زهاء مائتي متر ، وعمقه عن مستوىٰ الأرض المجاورة ثلاثة أمتار تقريباً[٧٤] ، في حين كانت بركة القصر الجعفري مستطيلة الشكل ، يبلغ طولها نحو مائة وعشرين متراً ، وعرضها مايقرب من ثمانين متراً[٧٥] .

ولابد من أن نشير الى ان الخليفة ـ علىٰ عادته ـ اهتم بالحدائق والبساتين والجنائن ، حتىٰ تستكمل الأبنية جمالها وروعتها ، وكانت أكبر الحدائق التي انشأها هي « حير الوحوش » وتقع خارج سامراء ، وتحتل مساحة واسعة من الأرض ، ومسورة بسور من طين ، تبلغ مساحتها (٥٣) متراً ، وتضم عدداً من الحيوانات[٧٦] .

من كل ماتقدم يتضح مدىٰ التطور الذي حصل في مدينة سامراء علىٰ عهد الخليفة المتوكل ، ولذلك فإن عهده يعد عهد العمران الحقيقي للمدينة .

وفي الختام نرىٰ من المفيد ان نشير الىٰ أن الخليفة المتوكل لم يهتم بالعاصمة حسب وانما اهتم كذلك بمدينة الرسول (ﷺ) ، حيث أمر بترميم مسجد الرسول (ﷺ) وحمل اليه الفسيفساء الكثير[٧٧] ، فضلاً عن اهتمامه بالكعبة المشرفة ، حيث قام بتجديدها ، وجعل البناء من الرخام وأزرها بالفضة « وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب ، ولم يفعل ذلك أحد قبله ، وكسا اساطينها الديباج »[٧٨] .

الهوامـــش

١ ـ اليعقوبي : البلدان ٣١ .

٢ ـ م . ن : ٢٨ .

٣ ـ م . ن : ٢٩ .

٤ ـ لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ٧٤ .

٥ ـ د. احمد سوسة : ري سامراء ١/٤٦ .

٦ ـ البلاذري : فتوح البلدان ٢/٣٦٤ .

٧ ـ اليعقوبي : التاريخ ٣/٢٢٣ .

٨ ـ الشابشتي : الديارات ٢ ١٠٢ ، وانظر الى الاختلاف في الأرقام في القيرواني : زهر الاداب ١/١٩٨ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ٣/١٧٥ .

٩ ـ الشابشتي : ١٠٢ .

١٠ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

١١ ـ الشابشتي : ١٠٢ . معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

١٢ ـ م . ن : ٣/١٧٥ ، وكذلك لاحظ الشابشتي ؛ ١٠٢ .

١٣ ـ م . ن : ١٠٢ .

١٤ ـ المسعودي : مروج الذهب ٤/٤٠ .

١٥ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

١٦ ـ م . ن : ٣/١٧٥ .

١٧ ـ م . ن : ٣/١٧٥ .

١٨ ـ اليعقوبي : التاريخ ٣/٢٢٣ ، الشابشتي : ١٠٢ .

١٩ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ ، ولاحظ اليعقوبي : ٣/٢٢٣ .

٢٠ ـ اليعقوبي : ٣/٢٢٣ .

٢١ ـ الشابشتي : ١٠٢ .

٢٢ ـ معجم البلدان : ١/٣٥٩ .

٢٣ ـ الشابشتي : ١٠٢ .

٢٤ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

٢٥ ـ م . ن : ٥/٧٠ .

٢٦ ـ الطبري : ٩/٢١٢ .

٢٧ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ ، ولاحظ اليعقوبي : ٣/٢٢٣ . وذكره الشابشتي

باسم « السندان » ص ١٠٢ .

٢٨ ـ الشابشتي : ١٠٣ ، وانظر اليعقوبي : ٣/٢٢٣ .

٢٩ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

٣٠ ـ ن . م : ٤/١٩٢ ـ ١٩٣ ، ولاحظ ماذكره في مكان آخر ٣/١٧٥ ، وقد وصف الشاعر البحتري القصر ، انظر يونس السامرائي : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ٢٤١ ، ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

٣١ ـ الشابشتي : ١٠٢ .

٣٢ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

٣٣ ـ يونس السامرائي : ٢٥٤ .

٣٤ ـ الشابشتي : ٩٦ ، وانظر معجم البلدان : ٣/١٧٥ ، ١/٤١٠ .

٣٥ ـ الشابشتي : ٩٦ ـ ١٠٠ .

٣٦ ـ د . طاهر العميد : العمارة العباسية في سامراء ١٦٥ ـ ١٦٩ .

٣٧ ـ المسعودي : مروج الذهب ٤/٤ ـ ٥ .

٣٨ ـ د . احمد سوسة : ٢/٢٩٨ .

٣٩ ـ معجم البلدان : ٢/٣٢٨ .

٤٠ ـ مروج الذهب : ٤/٥٤ ـ

٤١ ـ م . ن : ٤/٣ .

٤٢ ـ اليعقوبي : البلدان ٢٦، معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

٤٣ ـ د . طاهرالعميد : ١٥٤ .

٤٤ ـ اليعقوبي : البلدان ٢٦ ، معجم البلدان : ٣/١٧٥ .

٤٥ ـ د . طاهر العميد : ١٣١ .

٤٦ ـ د . احمد سوسة : ١/١١٠ .

٤٧ ـ د . طاهر العميد : ١٣٣ .

٤٨ ـ م . ن : ١٣٩ ـ ١٤٢ .

٤٩ ـ م . ن : ١٤٢ .

٥٠ ـ م . ن : ١٤٥ ـ ١٤٧ .

٥١ ـ م . ن : ١٤٨ ـ ١٤٩ .

٥٢ ـ المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ١٢٢ .

٥٣ ـ د . طاهر العميد : ١٥٦ .

٥٤ ـ البلاذري : ٢/٣٦٤ .
٥٥ ـ لطائف المعارف : ١٦١ .
٥٦ ـ د . طاهر العميد : ١٦٣ .
٥٧ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ .
٥٨ ـ اليعقوبي : البلدان ٣١ .
٥٩ ـ الطبري : ٩/٢١٢ .
٦٠ ـ اليعقوبي : البلدان ٣١ . والتاريخ ٣/٢٢٤ .
٦١ ـ الطبري : ٩/٢١٢ . معجم البلدان : ٥/٥٣ ، ٣/١٧٥ .
٦٢ ـ د . طاهر العميد : ١٧٦ .
٦٣ ـ اليعقوبي : ٣٠ ومابعدها ، التاريخ : ٣/٢٤٢ ومابعدها ، الطبري : ٩/٢١٢ ، ولاحظ د . طاهر العميد : ١٧٨ .
٦٤ ـ ديوان البحتري : ١/٣٩ .
٦٥ ـ م . ن : ١/٤٣ .
٦٦ ـ البلدان : ٣٠ ، ري سامراء : ١/١٣٧ ، ومابعدها .
٦٧ ـ معجم البلدان : ٣/١٧٥ .
٦٨ ـ م . ن : ٢/١٤٣ .
٦٩ ـ مروج الذهب : ٤/١٤٧
٧٠ ـ ديوان البحتري : ١/٤٠ ـ ٤١ .
٧١ ـ م . ن : ٢/٦٨ .
٧٢ ـ البلدان : ٣٢ ، معجم البلدان : ٥/٥٣ .
٧٣ ـ الطبري : ٩/٢١٢ ، ولاحظ الشابشتي : ١٠٢ . معجم البلدان ٣/١٧٥ .
٧٤ ـ د . احمد سوسة : ٢/٣١٠ .
٧٥ ـ م . ن : ٢/٣٣٧ .
٧٦ ـ م . ن : ١/١١٥ ، ٢/٢٩١ ـ ٢٩٢ .
٧٧ ـ البلاذري : ١/٥٥ .
٧٨ ـ م . ن : ١/٦ .



الفصل السـابع

الازدهـار الثقافـي

كان لرعاية الخليفة المتوكل للعلماء والأدباء والشعراء ، وكرمه ، أثر كبير في دفعهم الى مواصلة التردد على العاصمة سامراء والمكوث فيها مدداً طويلة من الزمن ، وكان من مظاهر حب الخليفة للعلم والأدب وتشجيعه المشتغلين بهما ، أن أقدم الكثير منهم على التأليف وكتابة الرسائل في الموضوعات المختلفة واهدائها للخليفة أو لوزيره أو لكبار موظفيه ؛ من ذلك اهداء حبيش بن موسى الضبي كتابه الأغاني للخليفة المتوكل[١] ، واهداء البحتري كتابه الحماسة للفتح بن خاقان[٢] .

وكان من جراء هذا الميل الى العلم والأدب ان أقدم البعض على اقتناء الكتب وتأسيس المكتبات ، كخزانة الفتح بن خاقان صديق الخليفة ، والتي جمعها علي بن يحيى المنجم ، ويقول عنها ابن النديم : « لم ير أعظم منها كثرة وحسناً »[٣] .

ولقد قصد بلاط الخليفة المتوكل الكثير من المؤدبين والمعلمين ، فكانوا موضع رعايته ، وعهد اليهم بتربية أولاده وتهذيبهم وتزويدهم بكل مايحتاجونه من علم وأدب واخلاق ، وكان يختارهم بعد أن يجري لهم امتحاناً في المسائل اللغوية والأدبية ، فمن اجتاز الامتحان بنجاح يعينه ليكون مؤدباً لولده ، ومن هؤلاء المؤدبين احمد بن عبيد بن ناصح المكنى بأبي عصيدة[٤] ، ومحمد بن قادم الذي أدب المعتز[٥] ، ومن المؤدبين الزبير بن بكار ، وكان مؤدب المعتز أيضاً[٦] . وممن أدب اولاد الخليفة المتوكل ابو يوسف يعقوب بن السكيت[٧] ، أما مؤدب المؤيد فكان ابراهيم بن سعدان الشيباني[٨] .

لقد أصبح البلاط العباسي على عهد الخليفة المتوكل قبلة للعلماء والأدباء والشعراء ، فالجاحظ يتصل بالفتح بن خاقان الذي أعجب به

وبأدبه فقربه ، وخصص له راتباً شهرياً ، ويذكر أن المتوكل استدعاه لتأديب ولده ، فلما رآه استبشع منظره ، فأعطاه عشرة آلاف درهم وصرفه[9] . واتصل بالخليفة المتوكل أيضاً محمد بن القاسم بن خلاد المعروف بأبي العيناء ، وكان يجمع بين الكتابة والخطابة والشعر ، ومن أصحاب البديهة الحاضرة والجواب السريع ، وله نوادر مشهورة ، وكان المتوكل كثير الاعجاب به لما يراه فيه من حدة الذكاء وقوة العارضة ، قال له المتوكل يوماً : « ماأشد شيء مرّ عليك في ذهاب بصرك ؟ فقال : فوات رؤيتك ياأمير المؤمنين مع اجماع الناس على ذلك »[10] ، وقال له مرة أيضاً : يامحمد ، لم يبق ممن حضر المجلس الا اغتابك غيري ، فأجاب على الفور :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي فلازال غضبانا علي لئامها[11]

ان تردد العلماء والأدباء على بلاط الخليفة المتوكل كان مدعاة للتنافس والتناظر فيما بينهم ، خصوصاً وان تشجيع الخليفة لهم له الأثر الكبير في الاندفاع نحو هذا التنافس والتناظر . ولقد تعددت تلك المناظرات ، ومجالس الخليفة ، فشملت أموراً عديدة ؛ علمية وتاريخية وفنية وأدبية ، فكانوا يخوضون فيها ويتبارون في الكثير من المسائل ، وكثيراً ماكانوا ينقسمون على أنفسهم ، البعض يؤيد هذا الرأي والبعض يعارضه ويجد من يؤيده بحرارة واندفاع ، فظهرت مهارات فائقة واطلاع واسع .

ومن بين تلك المناظرات التي كانت تجري ، المناظرات الفنية التي كانت تعقد بين المتخصصين في الغناء والموسيقى ، كالمناظرة الفنية بين « خشف الواضحية » و « عريب » ، اذ تمارتا بحضرة الخليفة المتوكل في

عدد أصوات « علية بنت المهدي »[١٢] .

أما المجالس والمناظرات اللغوية والنحوية والأدبية فكثيرة متعددة ، وكان الخليفة يشارك في الكثير من تلك المناظرات والمذكرات ، فيسأل ويستفهم ، من ذلك ماوقع للمبرد في مجلس الخليفة المتوكل ؛ ذلك ان المتوكل كان يعجبه الأخبار والأنساب ، ومايقع فيها من غريب اللغة ، فحين حضر المبرد مجلسه التفت اليه المتوكل وقال : « ياابن يزيد مامعنىٰ هذه الأحرف التي جاءت في هذا الخبر ؟ ركبت الدّجوجي ، وأمامي قبيلة ، فنزلت ثم شربت الصباح ، فمررت وليس أمامي الا نجيم ، فركضت امامي النحوص والمسحل والعمرد . . » ، فوجم المبرد وتحير ، ولم ينقذه من هذا المأزق الا تدخل من التمس من الخليفة ان يمهله مدة ليفكر ويتدبر أمره ، فرجع المبرد الىٰ منزله ، وعكف علىٰ دفاتره يتفحصها حتىٰ حصل علىٰ الجواب ، فعاد الىٰ الخليفة فروىٰ الخبر وفسّر الفاظه ، فسر المتوكل بذلك واكرم المبرد[١٣] .

وتروي مصادرنا ان المتوكل حين عزم على اتخاذ المؤدبين لولديه : المنتصر والمعتز ، فوض الأمر لأحد كتابه في ذلك ، فأحضر عدداً منهم وطلب اليهم المذاكرة فيما بينهم ليقف علىٰ مواضعهم من العلم ، فألقوا بينهم بيت الشعر :

ذريني انما خطئي وصوبي ... علي وأن ما أنفقت مال

فاتفقوا علىٰ أن « مال » ارتفعت « بما » اذ أنها بموضع الذي ، ثم سكتوا غير ان أحد الحاضرين وهو أحمد بن عبيد الذي كان جالساً في نهاية المجلس قال : هذا الاعراب ، فما المعنىٰ ؟ فسكت القوم ووجموا ، فاندفع ابن عبيد يشرح لهم المعنىٰ ، فتقدم اليه خادم المجلس وقال له :

ليس هذا موضعك ، فأجابه ابن عبيد بقوله : لأن أكون في مجلس ارتفع منه الىٰ أعلاه أحب الي من أكون في مجلس أحط منه ، ثم وقع الاختيار عليه[١٤] .

ويذكر أيضاً ماجرىٰ بين المتوكل والبحتري حول سحابة مرّت بها ، فطلب المتوكل من شاعره ان يقول فيها شيئاً ، فقال :

ذات ارتجاع بحنين الرعد جرورة الذيل صدوق الوعد

ثم انشده لمروان بن أبي حفصه في الأمين ، وعندما انتهىٰ الىٰ قوله :

رجحت زبيدة والنساء شوائل والله أرجح بالتقىٰ ميزانها

صاح به المتوكل صيحة ، وقال له : كذبت ، واثمت ، قل رجحت « قبيحة » ثم طلب منه ان ينشده ، فأنشده لأبي تمام :

لست لربع عنا ولاقدمه ولست من كاتب ولاحكمه
فإن من لم يفخر الملوك به ويستعبد الكريم من كرمه
الحقني بالملوك معتصم بالله والمسلمون في عصمه

فارتاح المتوكل لذلك وسر ، ثم طلب المزيد ، فأنشده للحسين بن الضحاك :

كم لك لما احتمل القطين من زفرة يتبعها الأنين
وعبرة تحدرها الشؤون إني ببغداد لمستكين

الىٰ قوله :

بضاعة أكسدها المأمون إمام عدل للتقىٰ أمين

فاستحسن المتوكل الشعر ، ولكنه أردف قائلاً : فماذا فعل به المأمون بعد أن هجاه ؟ فأجابه البحتري : فكيف يجسر علىٰ هجاء

المأمون ياأمير المؤمنين ؟ فقال المتوكل : فمن القائل :

ولافرح المأمون بالملك بعده ولازال في الدنيا طريداً مشرداً

فأجاب البحتري بما لايشفي غليلاً ، فعقب المتوكل على ذلك بقوله : لابأس فإنه قد تلاقى هذا الكلام بقوله :

رأى الله عبدالله خير عباده فملكه والله اعلم بالعبد

فقال البحتري : « ياأمير المؤمنين : اثقلت ظهري بالفوائد » ، فأجاب المتوكل : « أنا نأخذ ونعطي ونأتي بما يحيي المهج »[١٥] .

ومن المناظرات التي حصلت في مجلس المتوكل ماوقع بين المازني وابن السكيت حيث طلب منهما المتوكل التكلم في مسألة نحوية ، فقال الأول للثاني ماوزن « نكتل » من الفعل في قوله تعالى : « فأرسل معنا أخانا نكتل » ، فتسرع ابن السكيت ، وقال : « نفعل » فقال المازني : لاتعجل واتئد ، ففكر قليلاً وقال : « نفتعل » فقال له المازني : « نكتل » أربعة حروف و « نفتعل » خمسة حروف ، فكيف تقدر الرباعي بالخماسي ؟ فبهت ابن السكيت ولم يتكلم . عند ذلك قال له المتوكل : فما قولك في ذلك يامازني ؟ فقال : وزنها في الأصل « نفتعل » لأنها « نكتيل » ، فلما تحرك حرف العلة وهو الياء وانفتح ماقبلها قلبت الفاً فصارت « نكتال » ولما دخل الجازم صارت « نكتل » ، فقال المتوكل : هذا هو الحق[١٦] .

والى جانب هذه المناظرات العلمية والأدبية ، كانت هناك مناظرات أخرى لاتخلو من الدعابة والفكاهة ، يتبارى فيها الشعراء لإظهار مكانتهم وتفننهم ، فمما يروى في هذا المجال ماجرى بين مروان بن أبي حفصة وعلي بن الجهم ، وكان بين الاثنين تنافس

وتباغض ، فاجتمعا مرة في أحد مجالس الخليفة المتوكل ، فقال المتوكل لعلي : أيما أشعر أنت أم مروان ؟ فقال : انا ياأمير المؤمنين . ثم اقبل علىٰ مروان وقال له : قد سمعت ماأجاب به علي فما قولك ؟ فلم يملك هذا الا ان يستنكر ماقال علي بن الجهم مدعياً انه أشعر منه وملتمساً ان يكون الخليفة هو الحكم بينهما ، لكن ابن الجهم رفض ذلك بدعوىٰ محاباة الخليفة لمروان ، فعين المتوكل شخصاً آخر ليكون حكماً بينهما[١٧] .

وقد استقدم الخليفة المتوكل كبار علماء اللغة والنحو من الأمصار الأخرىٰ لغرض حل مايعترض من المشكلات اللغوية والنحوية ، ويذكر أنه مرة قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ ومايشعركم انها اذا جاءت لايؤمنون ﴾ ، وكان الفتح بن خاقان حاضراً ، فقال له : ياسيدي « إنها » بالكسر ، فتحاكما الىٰ يزيد المهلبي الشاعر الذي استطاع بمهارة ان يتخلص مما كلف به ، فادعىٰ انه لايعرف الفرق بينهما ، ولكنه يعرف عالماً متقدماً ليس له نظير في هذا الشأن ، يمكنه أن يحل هذه المسألة ، وأشار الىٰ المبرد . فأمر المتوكل بإحضاره الىٰ سامراء ، وعندما أحضر ، قال له الفتح بن خاقان ، وكان أدخل عليه أول الأمر : يابصري ، كيف تفسر هذا الحرف « ومايشعركم انها اذا جاءت لايؤمنون » بالفتح أو الكسر ؟ فقال : « أنها » بالكسر وهو الجيد المختار ، ففرح الفتح وركب الىٰ دار الخلافة وعرّفه بقدوم المبرد وبتأييده ماذهب اليه من كسر الهمزة في « انها » ، فأمر المتوكل باحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له : يابصري كيف تقرأ الآية ، فقال ياأمير المؤمنين الناس يقرأونها بالفتح ، فسر المتوكل بجوابه سروراً كبيراً ، ووجم الفتح مما سمع ثم أخرج المبرد فما كاد يصل الىٰ الموضع الذي اعدّ له حتىٰ ارسل الفتح في طلبه ، فلما حضر قال له : يابصري أول مابتدأتنا

بالكذب ، فقال المبرد : ماكذبت ايها الأمير فقال الفتح : وكيف وقد قلت لأمير المؤمنين أن الصواب بفتح الهمزة في « انها » قال المبرد : لم أقل هذا ، وانما قلت أكثر النـاس يقرؤونها بـالفتح ، وأكثـرهم علىٰ خطأ ، وانما تخلصت من اللائمة وهو أمير المؤمنين ، فسّر الفتح بذلك وأثنىٰ عليه[١٨] .

وبلغ من اهتمام الخليفة المتوكل بالعلماء والأدباء ورعايته الفن والغناء ، ان جعل لكثير منهم نوبات خاصة في الأسبوع ، يلزمون فيها بالحضور الىٰ دار الخلافة كما كانت تهيأ لهم حجرات خاصة في الـدار يتخذونها مقراً لهم في نوباتهم ، وحتىٰ يكونوا قريبين من الخليفة عند استدعائهم ، وممن كانت له نوبة يدخل فيها علىٰ الخليفة ، بندار بن عبدالحميد الذي كان يحفظ جملة صالحة من دواوين شعر العرب ، فقد كان له كل أسبوع دخلة علىٰ الخليفة[١٩] . وممن كـان له نـوبة في دار الخليفة البحتري شاعر الخليفة الأول[٢٠] .

وقد شهدت مدة خلافة المتوكل ازدهاراً حقيقياً للشعر العربي ، وبرز في عهده وبفضل رعايته الشخصية شعراء كبار كالبحتري وعلي بن الجهم . وكان الشعراء كبقية الأدباء والنحاة واللغويين وغيرهم يقيمون في كنف الخليفة ، وكان لهم أثر كبير في تسجيل الكثير من الأحداث التاريخية والعمرانية .

يعد أبو عبادة البحتري شاعر الخليفة المتوكل الأول ، اذ تهيأ له من العبقرية الشعرية وطـول الصحبة وتقـرب الخليفة لـه ، ومنزلتـه الفريدة لديه ان اصبح شعره سجلاً حافلاً لانجازات الخليفة المتوكل العظيمة ، وقد نال بسبب ذلك أموالاً طائلة[٢١] . لقد خلد البحتري في شعره كثيراً من أعمال المتوكل العمرانية ـ كما مرّ بنا ـ كما سجل الكثير

من الأحداث المختلفة ، فمن ذلك وصفه مواكب الخليفة وماكانت تموج به من الفرسان والأسلحة وماكان يرافق ذلك من خروج الناس للتطلع الىٰ رؤية الخليفة ، يقول البحتري في وصف موكب الخليفة في عيد الفطر :

بالبرّ صُمْتَ ، وأنتَ أفضلُ صائمٍ ... وَبِسُنَّةِ اللهِ الرَّضِيةِ تُفْطِرُ

فانعَمْ بيوْمِ الفِطرِ عَيْناً ، إنّه ... يَوْمٌ أغرُّ مِنَ الزَّمانِ مُشَهَّرُ

اظْهرتَ عِزَّ المُلْكِ فيهِ بجحْفَلٍ ... لجَبٍ ، يُحَاطُ الدينُ فيهِ ويُنْصَرُ

حتىٰ يقول :

وَرَنا اليْكَ النّاظِرُون فإصْبَعٌ ... يُومَا اليكَ بِها وَعينٌ تَنْظُرُ

يجِدُون رُؤيَتَكَ ، التي فازُوا بها ... مِنْ أنْعُمِ اللهِ التي لاتُكْفَرُ

ذَكَرُوا بطَلْعَتِكَ النَّبيَّ فَهلّلُوا ... لمّا طَلَعتَ من الصّفوفِ وكبّرُوا[٢٢]

كما كان الكثير من وفود الروم وغيرهم يفد الىٰ مدينة سامراء للمثول بين يدي الخليفة للتفاوض معه أو تقديم الولاء والطاعة ، وقد وصف البحتري وفداً من وفود الروم قدم الىٰ سامراء فقال :

وَرَأيتَ وَفْدَ الرّوم بَعْدَ عنادهم ... عَرَفُوا فَضَائِلَكَ التي لاتُجْهَلُ

لَحَظُوكَ أوّلَ لَحْظَةٍ فاستَصْغَروا ... مَنْ كانَ يُعظَم فيهم ويُبَجَّلُ

إحَضَرْتَهم حِجَباً لو احتُلِيَتْ بها ... عُصْمُ الجبالِ ، لأقْبلَتْ تتَنَزّلُ

ورأوْكَ وَضّاحَ الجبينِ ، كما يُرىٰ ... قَمَرُ السّماءِ السّعْدُ لَيلَةَ يَكمُلُ

نَظَروا اليكَ ، فقدّسوا وَلَو أنّهم ... نَطَقُوا الفصيحَ لكبّروا ولَهلّلوا[٢٣]

كما وصف البحتري وفد بني تغلب الذين قدموا ليقدموا فروض الطاعة والولاء للخليفة الذي صفح عنهم فقال من قصيدة يمدح بها المتوكل :

أَتَوْكَ وُفودَ الشّكرِ يُثْنونَ بالذي تَقَدَّمَ من نُعْماكَ ، عندهُم قبلُ

فَلمْ أرَ يَوماً كانَ أكثرَ سُؤْدَداً مِنَ اليَوْمِ ، ضَمَّتهم الىٰ بابك السُّبلُ

تَراءَوْكَ من أقصَىٰ السِّماطِ فقَصّروُا خُطاهم وقد جازُوا السّتور وهُم عُجُلُ

وَلَمّا قضَوْا صَدْرَ السّلامِ تَهافَتُوا علىٰ يَدِ بَسّامٍ سَجيّتُهُ رِسْلُ

اذا شَرَعُوا في خُطبَةٍ قَطَعَتْهُمُ جَلالَةُ طَلْقِ الوَجْهِ جانِبُهُ سَهلُ[٢٤]

ولما أدرك المعتز ابن الخليفة الحلم وبلغ مبلغ الرجال دخل البحتري علىٰ أبيه وأنشده مهنئاً :

ياكالىء الاسلام في غفلاته ومقيم نهجى حجه وجهاده

تهنيك في المعتز بشرىٰ بينت فينا فضيلة هديه ورشاده

قد ادرك الحلم الذي أبدىٰ لنا عن حلمه ووقاره وسداده

ومبارك ميلاد ملكك مخبر بقريب عهد كان من ميلاده[٢٥]

وهناك قصائد عديدة تسجل احداثاً اخرىٰ ، كتسجيله حادثة قضاء المتوكل علىٰ فتنة أهل حمص[٢٦] ، وحين رحل الخليفة الىٰ الموصل علىٰ رأس جيش بقصد غزو الروم نجد البحتري يسجل هذا الحدث في قوله من قصيدة :

بكرت جيادك والفوارس فوقها بالمشرفية والوشيج الذبل

غرأ محجلة تحاول وقعة بالروم في يوم أغر محجل

ويقول فيها :

سفر جلوت به العيون وأبصرت وفرجت ضيقة كل قلب مقفل[٢٧]

والبحتري بحكم كونه شاعر الخليفة كان مطالباً بالتهيؤ للتعبير عما يجول في أفكار الخليفة ، ومايطلبه من تصوير لما يحصل من مفارقات ، كحصول خلافات بين الخليفة وزوجاته مثلاً[٢٨] . علىٰ أننا

نرىٰ من الضروري التمثيل بأجزاء من بعض مدائحه في الخليفة المتوكل ، قال يمدحه ويشير الىٰ خلافته :

ان الخلافة لما اهتزّ منبرها … بجعفر أعطيت أقصىٰ أمانيها
ابدىٰ التواضع لما نالها رعة … منه ونالته فاختالت به فيها[29]

وقال أيضاً في المتوكل :

اليوم اطلع للخلافة سعدها … وأضاء فيها بدرها المتهلل
ليست جلالة جعفر فكأنها … سحر تجلّله الصباح المقبل[30]

أما علي بن الجهم فهو من أولئك الشعراء الذين وجدوا ضالتهم المنشودة في المتوكل ، وتقرب من الخليفة حتىٰ أصبح من خاصته وجلسائه ، فكان الخليفة يفضي اليه بالأسرار ويطلعه علىٰ ماكان يجري بينه وبين زوجاته ، حتىٰ ان الشاعر كان يعقد الآمال الكبار علىٰ مجيء المتوكل الىٰ الخلافة ، فيقول :

قالوا أتاك الأمل الأكبر … وفاز بالملك الفتىٰ الأزهر
واكتست الدنيا جمالاً به … فقلت قد قام اذاً جعفر[31]

وقد احتفىٰ به الخليفة ورعاه حتىٰ أصبح أخص شعرائه ، وقد عبر الشاعر عن أعمال الخليفة احسن تعبير في كثير من المناسبات ، فقد أدخل مرة علىٰ المتوكل رأس أحد الخارجين علىٰ الخلافة فقام الشاعر علي بن الجهم وارتجل :

اهلاً وسهلاً بك من رسول … جئت بما يشفي من الغليل
بجملة تغني عن التفصيل … برأس اسحاق بن اسماعيل

قهـراً بلا ختل ولاتطويـــل

وأعجب الخليفة بقوله وقال للحاضرين « قوموا التقطوا هذا الجوهر لئلا يضيع »[٣٢] .

وللشاعر علي بن الجهم الكثير من القصائد التي مدح بها المتوكل ، رائيته مشهورة في دنيا الأدب ومطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوىٰ من حيث أدري ولاأدري[٣٣]

أما ابراهيم بن العباس الصولي فقد اجمعت مصادرنا علىٰ أنه أشعر الكتاب في تلك الحقبة وقد اتصل بالخليفة المتوكل ، وتنقل في الأعمال الجليلة في الدواوين ، وبقي يتقلد ديوان الضياع والنفقات في عهد الخليفة المتوكل حتىٰ سنة ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م ، وقد أثرت عن الصولي مقطعات في مدح الخليفة المتوكل ، فمما قال في مدحه :

لكل عدو جولة ثم مرجع اليك ومن تطلبه فالله طالبه

ومن رام ان يلقىٰ عدوك فليقم ببابك تردوه اليك عواقبه[٣٤]

وشارك الصولي كبقية الشعراء في تسجيل الحوادث في عهد المتوكل ، فعندما عقد المتوكل البيعة لأولاده الثلاثة أسهم الصولي في تسجيل هذا الحدث والثناء علىٰ اجراء الخليفة فقال :

أضحت عرىٰ الاسلام وهي منوطة بالنصر والاعزاز والتأييد

بخليفة من هاشم وثلاثة كنفوا الخلافة من ولاة عهود[٣٥]

ومن الشعراء الكتاب ابراهيم بن المدبر ، وكان مقرباً من الخليفة المتوكل أيضاً ، وقام هذا الشاعر بتسجيل بعض الحوادث في عهده ، قال حين بايع الخليفة لأولاده الثلاثة :

يـابيعـة مثـل بيعـة الشجـرة فيهـا لـكـل الخـلائـق الخـيـرة
أكّـدهـا جـعفـر وصـيّـرهـا الى بنيـه الـثـلاثـة الـبـررة[36]

ومن الشعراء المقربين من الخليفة المتوكل مروان بن أبي الجنوب ، وحسنت حاله عند الخليفة المتوكل بما اعطاه من مال وذهب وكسوة ، حتىٰ قال للمتوكل بعد أن أغرقه بجوده :

فـأمسك نـدىٰ كفيك عني ولاتـزد فقـد كـدت أن أطغـىٰ وأن أتجبـرا

فرد عليه المتوكل : لا والله لاأمسـك حتىٰ أغرقـك بجودي ، وعقد للشاعر علىٰ البحرين واليمامة استحسانـاً لقصيدتـه التي يقول فيها :

بـيـضـاء في وجـنـاتـهـا ورد ، فكيـف لنـا بـشمـه[37]

ومن الشعراء المقربين الىٰ الخليفة المتوكل يزيد بن محمد المهلبي ، وكان حاضراً ليلة اغتيال الخليفة ، فرثاه بمرثية تعد من اجود ماقيل في معناها[38] .

وكان محمد بن صالح العلوي قد خرج علىٰ المتوكـل ، فأمر الخليفة بحمله الىٰ سامراء ، وحبسه مدة ثم أطلقه ، وله في المتوكـل مدائح جيدة وكثيرة ، قال من قصيدة له يشيد فيها بإحيائه السنة :

أحيت سنـة من مضىٰ فتـجـددت ابنت بـدعـة ذي الضلال الخـاسـر
فـافخـر بنفسك أو بجـدك معلنـاً أو دع فقـد جاوزت فخـرِ الفاخـر[39]

ومن الشعـراء الـذين مـدحـوا المتـوكـل أبـو الـوليـد الـكـلابي الأبرص[40] ، ومنهم أبو الشبل البرجمي عاصم بن وهب ، الذي قدم الىٰ سامراء ومدح المتوكل فأثرىٰ وأفاد ، وكان ظريفاً ماجناً[41] .

ومن الشعراء محمد بن عمرو الجماز البصري ، اتصل بالخليفة

المتوكل ومدحه[42] . ومن الذين مدحوا المتوكل محمد بن ادريس بن ابي حفصة[43] ، ومن الشعراء الماجنين أبو العبر الهاشمي ، وله أشعار حميدة في الخليفة المتوكل[44] ، وأبو العنبس الصيمري محمد بن اسحاق وكان أحد الأدباء الظرفاء ، اتصل بالمتوكل ونادمه واختص به ، وكان المتوكل في بعض الأحيان ميالاً للدعابة والهزل ، فلما أنشد البحتري قصيدته التي يمدح بها المتوكل والتي مطلعها :

عن أي ثغر تبتسم ... وبأي طرف تحتكم
حسن يضيء بحسنه ... والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر المتو ... كل ابن المعتصم
المرتضى بن المجتبى ... والمنعم بن المنتقم

من خلال هذا الاستعراض يتضح لنا مدى الازدهار الثقافي الذي حل في الدولة العربية الاسلامية على عهد الخليفة المتوكل .

الهوامش

١ ـ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ٧/ ٢٢٠ .

٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية : ٣/٣١٦ .

٣ ـ الفهرست : ١٦٩ .

٤ ـ معجم الأدباء : ٣/٢٢٨ .

٥ ـ م . ن : ٣/٢٢٨ ، ١٨/٢٠٩ .

٦ ـ أبو علي القالي : ذيل الأمالي والنوادر ٩٩ .

٧ ـ الفهرست : ١٠٨ .

٨ ـ معجم الأدباء : ١/١٥٤ .

٩ ـ مروج الذهب : ٤/١٧ ، معجم الأدباء : ١٦/١٠٣ .

١٠ ـ الديارات : ٥٤ .

١١ ـ م . ن : ٦٠ .

١٢ ـ الأصفهاني : الأغاني ٩/٨٤ ـ ٨٥ .

١٣ ـ معجم الأدباء : ٧/١٣٠ ـ ١٣٢ .

١٤ ـ الفهرست : ١٠٩ ، معجم الأدباء : ٣/٢٢٨ ـ ٢٣٥ .

١٥ ـ البيهقي : المحاسن والمساوىء ٢/٩٠ ـ ٩٢ .

١٦ ـ وفيات الأعيان : ٢/٤٤٠ ، ولاحظ القفطي : أنباه الرواة على أنباه النحاة : ١/٢٥٠ ـ ٢٥١ .

١٧ ـ الأغاني : ١٢ / ٨١ ـ ٨٣ .

١٨ ـ القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة : ٣/٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

١٩ ـ معجم الأدباء : ٧/١٣٠ .

٢٠ ـ اخبار البحتري : ٨٩ ـ ٩٠ .

٢١ ـ م . ن : ١١٩ .

٢٢ ـ ديوان البحتري : ١/٢٤ ط بيروت .

٢٣ ـ م . ن : ١/٣١ .

٢٤ ـ م . ن : ١/٧٣ .

٢٥ ـ م . ن : ٢/٧٠٤ ، لاحظ أخبار البحتري : ٩٤ .

٢٦ ـ ديوان البحتري : ٣/١٥٦٦ طبعة الصيرفي .

٢٧ - م . ن : ٣/١٦٢٦ .

٢٨ - م . ن : ١/١٢٩ ، اخبار البحتري ٩٤ .

٢٩ - م . ن : ٤/٢٤٢١ .

٣٠ - م . ن : ٣/١٧٥٤ .

٣١ - ديوان علي بن الجهم : ٢٦ طبعة دمشق ١٩٤٩ ، ولاحظ سامراء في أدب القرن الثالث الهجري : ١٣٧ .

٣٢ - الأغاني : ١٠/٢٣١ ، سامراء في أدب القرن الثالث الهجري : ١٣٧ - ١٣٨ .

٣٣ - ديوان علي بن الجهم : ١٤١ - ١٤٧ .

٣٤ - الطرائف الأدبية ، ديوان ابراهيم الصولي : ١٧٥ ، سامراء في أدب القرن الثالث الهجري : ١٤٧ .

٣٥ - الطرائف الأدبية ١٣١ ، م . ن : ١٤٨ .

٣٦ - مروج الذهب : ٤/٥ .

٣٧ - معجم الشعراء : ٣٢١ ، تاريخ بغداد : ١٣/٢٥٣ .

٣٨ - العقد الفريد : ٣/٢٨٨ ، زهر الأداب : ١/٢٢٨ .

٣٩ - الأغاني : ١٦/٣٧١ .

٤٠ - معجم الشعراء : ٣٨٨ - ٣٨٩ .

٤١ - الأغاني : ٣/٢١ ، معجم الأدباء ١/٢٣٧ .

٤٢ - تاريخ بغداد : ٣/١٢٥ .

٤٣ - معجم الشعراء : ٣٨٦ ، ٣٩٨ .

٤٤ - الأغاني : ٢٠/٩٠ .

الفصل الثامن

المؤامرة



في مساء الثلاثاء ٤ شوال من عام ٢٤٧ هـ / ١١ كانون الأول من عام ٨٦١ م ، اغتيل الخليفة المتوكل في مدينته الجديدة ، نتيجة مؤامرة دبرها مجموعة من القادة العسكريين الأتراك ، وبالتعاون مع مجموعة من حرسه الخاص . على ان أسباب هذه المؤامرة تعود الى جملة عوامل :

أهمها الأزمة بين الخليفة المتوكل والقادة العسكريين الأتراك ، خصوصاً وان الخليفة توجه الى الاستعانة بالعرب ، وأبعاد هؤلاء المرتزقة الأجانب ، فقام بتصفية ايتاخ التركي ، وتشكيل فرقة جلها من العرب ، كان ولاؤها لابنه المعتز ، ومرتبطة بالوزير عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، الذي كان ضمن كتلة يترأسها صديق الخليفة الفتح بن خاقان ، وكانت هذه الكتلة تحاول جاهدة الحد من تسلط هؤلاء الأجانب .

وقد تطورت الأزمة بين الخليفة وهؤلاء الأجانب ، حين اتخذ دمشق مقراً له وابتعاده عن سامراء ، ونجدهم في هذه المرحلة المبكرة ، قد فكروا في اغتيال الخليفة ، يقول اليعقوبي : « وبلغه عن بعض الموالي من الأتراك أمر كرهه »[1] ، ويشرح المسعودي ذلك فيقول : « وقد كان الأتراك قد رأوا انهم يقتلون المتوكل بدمشق »[2] .

وقد تصاعدت الأزمة بين الطرفين أكثر حين أمر الخليفة بمصادرة أموال وصيف في أصفهان والجبل ، ومنحها لصديقه الفتح بن خاقان ، يقول الطبري ان المتوكل : « كان أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصبهان والجبل واقطاعها الفتح بن خاقان فكتب الكتب بذلك ، وصارت الى الخاتم ، على أن تنفذ يوم الخميس لخمس خلون من شعبان »[3] ، علماً بأن المتوكل اغتيل قبل هذا الموعد بيوم واحد .

ويروي الطبري عن بعض المعاصرين ان المتوكل « عزم . . على ان . . يقتل وصيفاً وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم »[4] . على أنا يجب ان نشير الى ان هؤلاء الأتراك استغلوا تذمر الأمير وولي العهد الأول محمد المنتصر من محاولة والده تعيين ابنه الآخر المعتز وجعله ولي العهد الأول بدلاً منه ، فضلاً عن ذلك فقد مارس الخليفة ضغوطاً عديدة تجاه ابنه المنتصر ، من ذلك توجيه بعض الاهانات اليه[5] ، ويؤكد المسعودي ذلك فيقول : « ونال ابنه محمداً بأنواع الذلة والهوان »[6] ، ويشير الطبري في رواية أخرى الى أن المتوكل قال في مجلسه موجهاً كلامه لابنه المنتصر : « سميتك المنتصر ، فسمّاك الناس لحمقك المنتظر ، ثم صرت الآن المستعجل ، فقال المنتصر : ياأمير المؤمنين ، لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل عليّ مما تفعله بي »[7] .

ولعل من المناسب ان نذكر أن كتلة المعتز ، وعلى رأسها صديق الخليفة الفتح بن خاقان ومعه الوزير عبدالله بن يحيى بن خاقان ، لعبت دوراً كبيراً في التأثير على الخليفة لتغيير ترتيب ولاية العهد ، يشير المسعودي الى أن « عبيدالله بن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز ، وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على المنتصر »[8] ، وجاءت مناسبة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان فأراد الخليفة ان يقوم ابنه المنتصر بامامة الناس للصلاة ، الا ان هذه الكتلة اقنعته بأن يقوم ابنه المعتز بالصلاة : « فأمر المعتز ، فركب وصلى بالناس ، فأقام المنتصر في منزله ـ وكان بالجعفرية ـ وكان ذلك مما زاد في اغرائه به »[9] ، وعندما اراد الخليفة ان يقوم ابنه المنتصر بإمامة صلاة العيد على سبيل تطييب خاطره ، اقنعته الكتلة نفسها بضرورة قيامه بنفسه بامامة صلاة العيد بدلاً من ابنه بدعوى ان هو ان لم يقم بذلك

« أن يرجف الناس بعلته ويتكلموا في أمره »[10] ، فاقتنع الخليفة برأيهم فصلىٰ بالناس صلاة العيد .

لقد استغل القادة العسكريون تذمر ولي العهد الأمير المنتصر ، فكانت مصلحتهم بالتحالف معه ، لا حباً به أو للدفاع عن حقه ، وانما لاستغلاله لتنفيذ مؤامرتهم الخبيثة في اغتيال الخليفة ، الا أننا يجب أن نستدرك فنذكر ان الأمير المنتصر لم يشترك في وضع خطة الاغتيال ، فضلاً عن أن تأييده للعسكريين كان لأسباب شخصية بحتة وليس تبنياً لأهدافهم ، يقول المسعودي : « كان المنتصر لايبعد المتوكل أحداً من الأتراك الا اجتذبه ، فاستمال قلوب الأتراك وكثير من الفراغنة والأشروسنية »[11] ، وفي رواية أخرىٰ يذكر أن « بغا الصغير (الشرابي) توحش من المتوكل فكان المنتصر يجتذب قلوب الأتراك ، وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر ، فكان المتوكل يبغضه لذلك ، وكان أوتامش يجتذب قلوب الأتراك الىٰ المنتصر »[12] .

وقد حاولت بعض الروايات التاريخية ان تصور الخليفة ليلة اغتياله بأنه كان في مجلس شرابه ، وأنه شرب حتىٰ قارب أن يفقد وعيه ، حتىٰ ان الطبري يذكر رواية يقول فيها : « وذكر ان المنتصر كان شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء ، وأعلمهم بمذاهبه ، وحكىٰ عنه أموراً قبيحة كرهت ذكرها في الكتاب ، فأشاروا عليه بقتله ، فكان من أمره ماذكرنا بعضه »[13] . وواضح من هذا النص ان الطبري ادرك ان الروايات التي قيلت في اغتيال الخليفة كان هدفها النيل من السلوك الشخصي للخليفة ، لتبرير انهاء حياته بهذا الشكل الاجرامي ، حتىٰ ان الطبري صرف النظر عن ذكر بعضها كراهة منه ، أو عدم اقتناعه بما ورد بها ، ويؤكد المسعودي ذلك ، ولكن بشكل غير مباشر فيقول :

« وقد ذكر في كيفية قتل المتوكل غير ماذكرنا »[14] ، هذا اذا علمنا ان المسعودي يميل عادة الىٰ ذكر الروايات الغريبة ، وينفرد بذكر بعض الأساطير وحكايات الناس .

وبهذه المناسبة نجد من المهم ان نشير الىٰ ان هناك روايات تاريخية تذكر من سلوك الخليفة المتوكل مايتناقض مع ماتصوره تلك الروايات المغرضة ، منها ان المتوكل بعد أن صلىٰ بالناس صلاة العيد ، ورأىٰ الجموع الغفيرة من سكان سامراء ، أخذ الخليفة « حفنة من تراب ، فوضعها علىٰ رأسه ، فقيل له في ذلك ، فقال : اني رأيت كثرة هذا الجمع ، ورأيتهم تحت يدي ، فأحببت أن أتواضع لله عزّ وجلّ »[15] .

ثم ان المتوكل اهتم ببعض المظاهر الدينية وأحياها ، فاهتم بحربة كانت للرسول (ﷺ) ، « وكان يمشىٰ بها بين يدي رسول الله ﷺ في العيدين ، وكانت تركز بين يديه في الفناء ، فيصلّىٰ اليها ، فأمر المتوكل بحملها بين يديه ، فكان يحملها بين يديه صاحب الشرطة »[16] . ويتحدث الخطيب البغدادي عن علاقة الخليفة بالزاهد ذي النون المصري ، الذي احضره من مصر ، وأكرمه كثيراً ، والمطلع علىٰ تلك الروايات[17] ، يرىٰ مدىٰ اهتمام الخليفة المتوكل ورغبته في مجالسة العلماء والحكماء والزهاد والاستماع الىٰ أقوالهم والأخذ بها ، ويذكر ابن العماد الحنبلي ابتعاد الخليفة عن الهزل واللهو فيقول : « ورزق المتوكل من الحظ من العامة لتركه الهزل واللهو »[18] . أما علاقته الحسنة بعلماء الدين وإصغائه الىٰ أقوالهم ومواعظهم ، فتحدث عنها ابن كثير بقوله : وجه المتوكل الىٰ أحمد بن المعذل وغيره من العلماء ، فجمعهم في داره . ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم الا احمد بن المعذل فقال المتوكل لعبيدالله بن خاقان وزيره : ان هذا لايرىٰ

بيعتنا ، فقال : ياأمير المؤمنين بلىٰ ، ولكن في بصره سوء ، فقال : ياأمير المؤمنين مافي بصري من سوء ، ولكن نزهتك من عذاب الله ؛ قال النبي ﷺ : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار ، فجاء المتوكل فجلس الىٰ جانبه[19] . وهذا ابراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة يقول : « وقد بلغ من ورعه (المتوكل) انه صيدت سمكة ، فلما القيت في النار تحركت ، فبعث يسأل أيحل أكلها أم لا ؟ » .

ويقول عن صلاح المتوكل : « ندمت ألا أكون قلت للمتوكل : تدعو لي فان دعاء الامام مستجاب »[20] .

ومهما يكن من أمر فإن بغا الصغير (الشرابي) كان العقل المدبر للمؤامرة ، يقول المسعودي : « لما عزم بغا الصغير علىٰ قتل المتوكل ، دعا باغر التركي ، وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصلات ، وكان مقداماً أهوج »[21] ، فامتحنه عدة مرات يوهمه انه يريد اغتيال عدة شخصيات مهمة ، وفي آخر لحظة من موعد التنفيذ يأمره بصرف النظر عن مشروعه ، الى ان تأكد من اطاعته الأوامر وتنفيذه مايكلفه به من جسيم الأمور ، « فعلم بغا حينئذ انه قاتله (المتوكل) وتوجه له في التدبير في قتل المتوكل »[22] .

وقد هيأ بغا الشرابي عشرة من رجال الأتراك وراء الستر ، وكان فيهم يغلون التركي ، وباغر ، وموسىٰ بن بغا ، وهارون بن صوارتكين ، واتفقوا مع وصيف : وقالوا له : « كن معنا فإنا نتخوف الا يتم مانريد فنقتل ، قال : لابأس عليكم ، فقالوا له : فأرسل معنا بعض ولدك ، فأرسل معهم خمسة من ولده ، صالحاً وأحمد وعبدالله ونصراً وعبيدالله »[23] ، وهكذا اتفقوا مع القائد وصيف الذي أمر

الخليفة بمصادرة أمواله .

كان بغا الشرابي قائماً عند الستر ، على الرغم من أن ذلك اليوم كان نوبة بغا الكبير ، الذي خلف ابنه موسى (وهو من المتآمرين) ، « فدخل بغا الصغير الى المجلس ، فأمر الندماء بالانصراف الى حجرهم »[24] ، وبذلك اخلي المجلس وبقي الخليفة ومعه صديقه الفتح بن خاقان ، عند ذلك هجم باغر ومعه بقية المتآمرين « وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق »[25] . كان يغلون التركي أول من هجم على الخليفة : « فضربه ضربة على كتفه واذنه فقده ، فقال (المتوكل) : مهلاً قطع الله يدك ، ثم قام وأراد الوثوب به ، فاستقبله بيده فأبانها ، فشركه باغر ، فقال الفتح (بن خاقان) : ويلكم أمير المؤمنين ؛ فقال بغا : ياحلقي لاتسكت فرمى الفتح بنفسه على المتوكل ، فبعجه هارون بسيفه ، فصاح : الموت ، واعتوره هارون وموسى بن بغا بأسيافهما فقتلاه وقطعاه »[26] .

وفي رواية أخرى للطبري عن شاهد عيان يقول : « قام الفتح في وجوههم فقال لهم : ياكلاب وراءكم وراءكم ، فبدر اليه بغا الشرابي ، فبعج بطنه بالسيف ، وبدر الباقون الى المتوكل »[27] .

وعلى الرغم من ان كتلة الأمير عبدالله المعتز علمت بالمؤامرة قبل تنفيذها عن طريق امرأة من نساء الأتراك[28] ، الا ان هذه الكتلة لم تتخذ الاجراءات الأمنية لحماية الخليفة والتحرك ضد المتآمرين ، أو فضحهم في الأقل ، ولعل السبب يعود الى ان المسؤولين عن الأمن في البلاط هم أنفسهم كانوا من المتآمرين فضلاً عن قيامهم باحتجاز الأمير المعتز رهينة لديهم ، وبذلك استطاعوا تحييد الوزير فلم يستطع أن ينظم المقاومة ، على الرغم من أن الكتلة العربية تحركت ، وبسرعة ، طالبة

منه وضع حد لتسلط هؤلاء المرتزقة ، الا انه آثر السلامة واعترف فوراً بالخليفة الجديد (المنتصر) ، يقول الطبري : « واجتمع الىٰ عبيدالله أصحابه غداة يوم الأربعاء . . فقالوا له : انما كنت تصطنعنا لهذا اليوم ، فأمر بأمرك وأذن لنا نمل علىٰ القوم ميلة ، نقتل المنتصر ومن معه من الأتراك وغيرهم ، فأبىٰ ذلك وقال : ليس في هذا حيلة والرجل في ايديهم - يعني المعتز »[٢٩] .

لقد أحس المتآمرون بحرج موقفهم ، ذلك أن هذه الجريمة ، كادت أن تسبب حرباً أهلية ، لولا أنهم أعدوا بياناً ، اعلن الىٰ الناس ، فيه الكثير من المغالطة والكذب ، يقول الطبري : « لما كان صبيحة الأربعاء ، حضر الناس الجعفرية من القواد والكتاب والوجوه والشاكرية والجند وغيرهم ، فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب (الوزير الجديد وأحد المتآمرين) كتاباً يخبر فيه عن أمير المؤمنين المنتصر ، ان الفتح بن خاقان قتل اباه جعفر المتوكل ، فقتله به »[٣٠] . علىٰ أن الطبري يذكر في مناسبة أخرىٰ ان البيان الذي أصدره المتآمرون ، لم ينطل علىٰ الناس ، الذين تجمهروا عند سماعهم نبأ اغتيال المتوكل ، فقد شتموا ممثل الخليفة الجديد ، « فدخل الىٰ المنتصر فأخبره ؛ فخرج (المنتصر) فصاح بهم ياكلاب ، خذوهم ، فحملوا علىٰ الناس فدفعوهم . . فازدحم الناس ، ووقع بعضهم علىٰ بعض ، ثم تفرقوا عن عدة قد ماتوا من الزحمة والدوس »[٣١] .

وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة علىٰ يد حفنة من القادة العسكريين المرتزقة الأجانب ،فكان اغتياله بداية عهد جديد ، اهم مايتميز به ازدياد نفوذ هؤلاء المرتزقة ، وسيطرتهم علىٰ مقاليد الحكم ، وتقليص سلطة الخليفة .

وفي الختام نرى من الضروري الاشارة الى أن الشعراء فضحوا المتآمرين ونددوا بهم ، وقد رثاه الشعراء مرثيات خالدات ، أعظمها كانت قصيدة شاعر الخليفة الأول البحتري : فكانت رائية خالدة ، بكاه فيها أحرّ بكاء وكان فيها من الجرأة والصراحة والتشهير بقاتليه مالايمكن السكوت عليه ، فكانت مرثية ـ بحق ـ كما قال فيها ثعلب « ماقيلت هاشمية احسن منها ، وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب »[٣٢] يقول فيها :

تخفى لـه مغتـالـه تحت غـرة	وأولى لمن يغتـالـه لـو يجـاهـره
فـما قـاتلت عنـه المنـايـا جنـوده	ولادافـعـت امـلاكـه وذخـائـره

ويقول فيها :

صريع تقـاضـاه السيوف حشاشة	يجـود بهـا والمـوت حمـر أظـافره
أدافـع عنـه بـاليـدين ولم يكـن	ليثني الاعادي أعزل الليل حاسره[٣٣]

وعندما سمع علي بن الجهم باغتيال الخليفة وهو ببغداد رثاه بقصيدة يقول فيها :

أيقتـل في دار الخـلافـة جعـفـر	على فـرقـة صبـراً وأنتم شهـودهـا
فـلا طـالب للثأر من بعـد مـوتـه	ولادافـع عن نفسـه من يـريـدهـا
بنـو هـاشم مثـل النجـوم وانمـا	ملوك بني العبـاس منها سعـودهـا
بني هـاشم صبـراً فكـل مـصيبـة	سيبـلى على طـول الزمـان جديـدهـا
عـزيـز علينـا ان نـرى سـرواتكم	تقـرى بأيـدي النـاكثين جلودهـا[٣٤]

وكان الشاعر يزيد المهلبي حاضراً ليلة اغتيال الخليفة المتوكل ، فرثاه بمرثية تعد من أجود ماقيل في معناها ، ويوضح يزيد المرارة التي كان يحسها بضعف العنصر العربي ، وتخلفه عن الأتراك ، كما يحض

فيها علىٰ اصطناع العرب ، يقول :

هـلا اتـتـه اعـاديـه مجـاهـرة والحـرب تسعـر والأبـطـال تجتلد
نخرّ فـوق سـريـر الملك منجـدلاً لم يحمـه ملكـه لمـا انقضـىٰ الأمـد
علتـك أسياف من لادونـه أحـد وليس فـوقك الا الـواحـد الصمـد
أضحىٰ شهيـد بني العبـاس موعـظة لكـل ذي عـزة في رأسـه صيـد
خليفـة لم ينـل مـانـالـه أحـد ولم يـكـن مـثلـه روح ولاجسـد

الى ان يقول :

لـما اعتقدتم انـاساً لاحلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقـد
فلو جعلتم عـلىٰ الأحـرار نعمـتكـم حمتكم انـداده المـركـوزة الحشـد
قـوم هم الجـذم والأنسـاب تجمعكم والمجـد والـدين والأرحـام والبلد[٣٥]

الهوامـــش

١ ـ اليعقوبي : ٣/٢٢٤ .
٢ ـ مروج الذهب : ٤/٣٣ .
٣ ـ الطبري : ٩/٢٢٢ .
٤ ـ م . ن : ٩/٢٢٥ .
٥ ـ م . ن : ٩/٢٢٥ .
٦ ـ التنبيه والاشراف : ٣٦٢ .
٧ ـ الطبري : ٩/٢٢٥ .
٨ ـ مروج الذهب : ٤/٣٨ ـ ٣٩ .
٩ ـ الطبري : ٩/٢٢٣ .
١٠ ـ م . ن : ٩/٢٢٣ .
١١ ـ مروج الذهب : ٤/٣٩ .
١٢ ـ م . ن : ٤/٣٨ .
١٣ ـ الطبري : ٩/٢٥٢ .
١٤ ـ مروج الذهب : ٤/٣٩ .

١٥ ـ الطبري : ٩/٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

١٦ ـ م . ن : ٩/٢١٠ ـ ٢١١ .

١٧ ـ تاريخ بغداد : ٨/٢١٤ ، ٢١٦ ، ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ، ٣٦٩ .

١٨ ـ شذرات الذهب : ٢/١٢٤ .

١٩ ـ البداية والنهاية : ١/٣٥٠ .

٢٠ ـ وكيع : اخبار القضاة ٢/١٨٠ .

٢١ ـ مروج الذهب : ٤/٣٤ .

٢٢ ـ راجع المصدر نفسه : ٤/٣٥ ـ ٣٦ فيه تفصيلات كثيرة .

٢٣ ـ الطبري : ٩/٢٢٧ .

٢٤ ـ م . ن : ٩/٢٢٦ .

٢٥ ـ مروج الذهب : ٤/٣٨ .

٢٦ ـ الطبري : ٩/٢٢٧ .

٢٧ ـ م . ن : ٩/٢٢٨ .

٢٨ ـ م . ن : ٩/٢٢٨ .

٢٩ ـ م . ن : ٩/٢٢٩ .

٣٠ ـ م . ن : ٩/٢٣٤ .

٣١ ـ م . ن : ٩/٢٣٩ .

٣٢ ـ زهر الاداب : ١/٢٢٩ .

٣٣ ـ ديوان البحتري : ١/٥٥ .

٣٤ ـ ديوان علي بن الجهم : ٦١ ـ ٦٢ .

٣٥ ـ العقد الفريد : ٣/٢٨٨ .

الخاتمة :

وهكذا يتضح لنا من خلال هذا الاستعراض لحياة الخليفة المتوكل علىٰ الله العباسي انه كان ابن عصره ، وحاول جاهداً ان يعيد الأمور الىٰ ماكانت عليه في عهد الخلفاء العباسيين الأول ، واستطاع ان ينهض بأعباء الخلافة خير نهوض .

لقد ادرك هذا الخليفة البارز الغلط الذي وقع فيه الخلفاء الثلاثة قبله ، بإجبار الناس علىٰ قبول مبادىء وأفكار دينية معينة ، ومهما كانت مبرراتهم لتلك السياسة ، الا أن دخول الدولة بكل ثقلها لتكون طرفاً في النزاع بين المعتزلة ، وهم أقلية ، وأعدائهم ، وهم الكثرة من العامة من الناس ، حول مسألة دينية ، أدىٰ الى ترسيخ انشقاقات في المجتمع آنذاك ، ولانغالي اذا قلنا أن جزءاً كبيراً من الشهرة والحب الذي حظي بها المتوكل يعود الىٰ انهاء هذه الأزمة بحنكة وروية ، بحيث قورن بالخليفتين الخالدين ، أبي بكر الصديق (رض) وعمر بن عبدالعزيز ، وكانت الحصيلة ابتعاد الدولة عن الجدل الديني الذي كان دائراً ، واعطاء الحرية في الاعتقادات الدينية للجميع ، وهو عمل جبار ، لاينهض به الا من كانت له قابليات وقدرات غير عادية . هذا اذا تذكرنا ان حياة المتوكل في شبابه ـ علىٰ قلة الروايات عنها ـ لاتؤهله لتحمل أعباء تجاوز هذه الأزمة الخطيرة ، فكيف به وقد عالج أزمة أخرىٰ لاتقل عنها خطورة ؛ فقد واجه تدخل القادة العسكريين الأتراك المرتزقة الأجانب في شؤون سياسية بعيدة عن تخصصهم ، بحيث استطاعوا فرض المتوكل نفسه خليفة رغم اعتراض الوزير الزيات علىٰ تنصيبه ، فحاول المتوكل اعادة تنظيم الجيش ، فبدأ بتشكيل فرقة عسكرية

جديدة جلها من العرب ، وهي خطوة في حد ذاتها لاستبدال الجيش القديم بجيش جديد ، ثم انه استطاع ان يتخلص من بعض هؤلاء المرتزقة .

وهناك جوانب ايجابية اخرىٰ في حياة هذا الخليفة ؛ فقد واجه بشجاعة فائقة تدهور الادارة وتفشي الفساد والرشوة بين الوزراء وكبار الموظفين ، فعزل المفسدين والمرتشين ، وصادر أموالهم المنقولة وغير المنقولة ، فضلاً عن تعيينه وزراء اكفاء . أما اصلاحاته الزراعية والاقتصادية فقد انعكست بشكل مباشر علىٰ العامة من الناس ، فعدّ الناس عهده من أحسن العهود من حيث التقدم والازدهار والرفاهية والعدل والأمان .

لم تكن شهرة الخليفة المتوكل تعود الىٰ انجازاته العظيمة تلك فحسب ، وانما تعود في جزء مهم منها الىٰ كون عهده عهد العمران الحقيقي لمدينة سامراء من جهة ، وعهد الازهار الثقافي من جهة أخرىٰ ؛ فكان لحبه البناء والعمارة وتوزيعه الأراضي علىٰ الناس ، وسخائه بالمال أكبر الأثر في تطور مدينة سامراء تطوراً كبيراً ، بحيث أصبح طولها مايقرب من (٣٤) كيلومتراً ، وماالآثار الموجودة في سامراء حالياً الا شاهد حي علىٰ ماتركه من بصمات علىٰ هذه المدينة العريقة ، وكانت رعاية الخليفة للعلماء والأدباء والشعراء وكرمه وتشجيعه دافعاً لهم لمواصلة التأليف والتصنيف وكتابة الرسائل في المجالات المختلفة ، وشهدت مدة خلافته ازدهاراً حقيقياً للشعر العربي .

لكن تآمر المرتزقة الأجانب ، بعد أن أحسوا بقرب قيام الخليفة المتوكل بالقضاء عليهم وضرب مصالحهم وتقريبه العرب ، أدىٰ الى

وضع نهاية لحياة هذا الخليفة البارز ، فاغتيل غيلة بأيديهم الأثيمة .

وفي الختام نرجو أن نكون قد وفقنا في اعطاء صورة لحياة خليفة شهير من خلفاء بني العباس ، وعرض موجز لمرحلة تاريخية من أعقد مراحل الدولة العربية الاسلامية في عصرها الزاهر .

ونسأل الله التوفيق والســداد ،

قائمة المصادر والمراجع

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) .

١ ـ الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٧ ، الطبعة الثانية .

باتون : ولتر ملفيل

٢ ـ احمد بن حنبل والمحنة ، ترجمة عبدالعزيز عبدالحق ، مراجعة محمود محمود ، دار الهلال .

البلاذري : احمد بن يحيىٰ بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .

٣ ـ فتوح البلدان : تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة .

بهجت التكريتي : كامل عبداللطيف (الدكتور) .

٤ ـ الخليفة المتوكل بين خصومه وانصاره : مجلة كلية الأداب ، جامعة البصرة ، العدد ١٠ لسنة ١٩٧٦ .

الثعالبي : أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م) .

٥ ـ لطائف المعارف ، القاهرة ١٩٦٠ .

الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) .

٦ ـ تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١م .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد

(ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
٧ ـ وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، الطبعة الأولىٰ ، النهضة بمصر ١٩٤٨ .

حنبل : حنبل بن اسحاق .
٨ ـ مخطوطة ذكر محنة ابي عبدالله احمد حنبل ، دار الكتب المصرية ، ٢٠٠٠ تاريخ .

ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن علي (ت بعد ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) .
٩ ـ صورة الأرض ، طبعة بيروت .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) .
١٠ ـ رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، ليدن ١٩٠٣م .
١١ ـ رسائل الجاحظ ، جمعها ونشرها حسن السندوبي ، الطبعة الأولىٰ بمصر ١٩٣٤م .
١٢ ـ رسائل الجاحظ ، دار النهضة الحديثة ، بيروت ١٩٧٢م .
١٣ ـ العثمانية ، تحقيق عبدالسلام هرون ، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٥م .

ابن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) .
١٤ ـ مناقب الامام احمد بن حنبل ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٣م .

ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن أبي علي (ت ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م) .
١٥ ـ النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٦م .

الدوري : عبدالعزيز (الدكتور) .

١٦ ـ العصر العباسي الأول ، بغداد ١٩٤٥ .
١٧ ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، بغداد ١٩٤٥ م .

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) .

١٨ ـ العبر في خبر من غبر ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ .
١٩ ـ سير اعلام النبلاء ، مخطوطة مصورة في معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، النسخة الثانية ٢٨٧ تاريخ .

السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

٢٠ ـ تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٦٩ .

سوسة : احمد (الدكتور) .

٢١ ـ سامراء في عهد الخلافة العباسية ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٩٤٨م .

الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) .

٢٢ ـ الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٩٥١ م .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢م) .

٢٣ ـ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م .

ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م) .

٢٤ ـ الفخري في الآداب السلطانية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م .
ابن العماد الحنبلي : ابو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) .
٢٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .
عمر : فاروق (الدكتور) .
٢٦ ـ العباسيون الأوائل : جزءان ، الأول ١٩٧٠ ، الثاني ١٩٧٣ م .
٢٧ ـ الخلافة العباسية في عصر الفوضىٰ العسكرية ، بغداد ١٩٧٤ م .
٢٨ ـ نظرات في سياسة الخليفة المتوكل ، مجلة الجمعية التاريخية ، العدد الثاني ١٩٧٢ م .
٢٩ ـ الخلافة العباسية ، دار الحكمة ، بغداد ١٩٨٦ .
٣٠ ـ نظرات في سياسة الخليفة العباسي المتوكل ، مجلة الجمعية التاريخية العراقية ، العدد الثاني ، بغداد ١٩٧٢م .
العميد : طاهر مظفر (الدكتور)
٣١ ـ العمارة العباسية في سامراء ، وزارة الاعلام ١٩٧٦م .
فازيلييف : الكسندر
٣٢ ـ العرب والروم ، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة ، دار الفكر العربي .
أبو الفرج الأصفهاني : علي بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) .
٣٢ ـ مقاتل الطالبيين ، الطبعة الثانية ١٩٦٥م .
ابن الكازروني : ظهير الدين علي بن محمد (ت ٦٩٧ هـ /

١٢٩٧ م) .
٣٣ ـ مختصر التاريخ ، حققه د . مصطفىٰ جواد ، بغداد ١٩٧٠ م .
ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .
٣٤ ـ البداية والنهاية ، مطبعة السعادة بمصر .
لسترنج : كي
٣٥ ـ بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس ، كوركيس عواد ، بغداد ١٩٤٥ .
المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ / ١٩٥٧م) .
٣٦ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٦٦ .
٣٧ ـ التنبيه والاشراف ، مكتبة خياط ، بيروت ١٩٦٥ .
مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) .
٣٨ ـ تجارب الأمم ، مطبعة المثنىٰ ، بالاوفست عن نسخة ١٨٦٩ م .
مصطفىٰ : شاكر (الدكتور) .
٣٩ ـ في التاريخ العباسي ، مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ١٩٥٧ م .
المقدسي : أبوعبدالله شمس الدين محمد (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) .
٤٠ ـ احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نسخة بالأوفسيت عن نسخة ليدن ١٩٠٦م .
وكيع : محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) .
٤١ ـ أخبار القضاة ، بيروت ، عالم الكتب .
ياقوت الحموي ، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦ هـ/

١٢٢٨م) .
٤٢ ـ معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ م .
اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر الكاتب (ت ٢٩٢ هـ /
٩٠٤م) .
٤٣ ـ التاريخ ، النجف ١٩٦٤ م .
٤٤ ـ البلدان ، النجف ١٩٥٧ م .
يونس السامرائي : أحمد .
٤٥ ـ سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ، بغداد ١٩٦٨ م .

الفهرســت

الموضــوع | الصفحة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : رياض عبدالكريم

السعر.. دينار وربع



بغداد ــ ١٩٩٠

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة